أيـام

في حيـاة الرسول ﷺ

المؤلف

عبد الرحمن عبد العظيم مشهور

مكتبة الإيمان – المنصورة

ت: ٢٢٥٨٨٢

الطبعة الأولى

٢٠٠٦م – ١٤٢هـ

الإهــداء

إلى مَن قاسمتنى مُر الحياة وحلوها

إلى زوجتى الحبيبة أُم باسم

وإلى زهور عمرى (أولادى):

باسم عبد الرحمن عبد العظيم مشهور

أمل عبد الرحمن عبد العظيم مشهور

حنان عبد الرحمن عبد العظيم مشهور

لهم منى كل الحب ...،،،

عبد الرحمن عبد العظيم مشهور

مقدمـــة

الحمـــد لله رب العـــالمين، والصـــلاة والســـلام علـــى صـــاحب السـيرة العطـرة محمـد بـن عبـد الله الهاشـمي صـلوات الله وسـلامه عليه.

أما بعد،

فمعـذرة منـي إلـى رسـول الله ﷺ فـي إقـدامي علـى القيـام بكتابـة سـيرته العطـرة، التـي تاقـت نفسـي إلـى الكتابـة فيهـا، وليسـمح لـي الحبيـب ﷺ (والحبيـب كمـا أحـب أن أسـميه بهـذا الاسـم)، أن أكتـب في سيرته باختصار وإيجاز.

وقـد كتبـت هـذه السيرة بأسـلوب سـهل علـى القـارئ لأنـي وجـدت معظـم كتـب السـيرة التـي كتبهـا مشـايخنا الأفاضـل وأسـاتذتنا الأجـلاء بهـا بعـض الكلمـات التـي قـد تبـدو صـعبة علـى العامـة، فقـدمت هـذه السـيرة تحـت عنـوان (أيـام فـي حيـاة الرسـول ﷺ) وكمـا ذكـرت آنفـا أني كتبتها بسهولة ويسر ليتناولها الجميع.

علمــا بــأني كنــت أغــوص فــي بحــر الســيرة متنســماً بنســيمها العـاطر مـن الـرواد الـذين سـبقوني فـي كتابتهـا، كأمثـال (ابـن هشـام، وابن القيم، وغيرهما).

وعكفت على كتابتها في مدة تقارب عام ونصف العام.

وبالرغم من المجهود الشاق الذي بذلته في القراءة والاطلاع والبحث إلا أنني كنت أشعر بسعادة غامرة لا تفوقها سعادة، لأن فيها عطر محمد ﷺ.

اللهم أسألك أن تتقبل مني هذا العمل الذي لا أبتغي منه سوى رضاك يا رب ثم رضا الحبيب ﷺ الذي تجاوزت قدري حين كتبت هذه السيرة، وهنا أستعير قول أمير الشعراء (أحمد شوقي) الذي مدح المصطفى ﷺ فقال في قصيدة سلوا قلبي:

أبا الزهراء قد جاوزت قدري ::: بمدحك بيد أن لي انتسابا
فما عرف البلاغة ذو بيان ::: إذا لم يتخذك له كتابا
مدحت المالكين فزذت قدرا ::: فحين مدحتك اقتدت السحابا
سألت الله في أبناء ديني ::: فإن تكن الوسيلة لي أجابا
وما للمسلمين سواك حصن ::: إذا ما الضر مسهم ونابا

وختاما أصلي وأسلم على صاحب السيرة العطرة

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عبدالرحمن عبدالعظيم مشهور
بنها - بنها الجديدة - ش - سيف النصر
ت / ٢٣٩٩١٩ /٠١٣ بنها

بريد الكتروني:

abdelrahmanmashhour@ageeb.com
Amashhour55@hotmail.com

-١-

الجزيرة العربية

كانت الجزيرة العربية قبل ميلاد الحبيب المصطفى محمد بن عبد الله ﷺ تعيش في ظلام حالك وفي جهل وكفر وعبادة أوثان وأصنام امتلأت بها ساحات بيت الله الحرام وما حوله.

وأهل الجزيرة من البدو الرحالة الذين يسعون في الأرض لاكتساب قوتهم وكانت مهنة الغالبية العظمى آنذاك هي رعي الغنم.

وكانوا في قتال وحروب باستمرار، فكانت تنشب بينهم الحروب لأتفه الأسباب، وكانت هناك حانات السكر والعربدة، وصاحبات الرايات الحُمر اللواتي يبعن المتعة لطالبي المتعة الحرام، وبالرغم من ذلك الفجور المتفشي في هذه البقعة كان سادات القبائل وأشرافها هم رواد هذه الحانات وبيوت صاحبات الرايات الحُمر، وكانوا يتفاخرون بهذه الأفعال.

ومع كل هذا كانوا أهلا للتجارة، فهم من أحسن التجار على وجه الأرض ويجيدون فن التجارة، وكانت لهم رحلتان، رحلة في الشتاء ورحلة في الصيف وخاصة أهل قريش، وكانوا يتحدثون الفصحى بطلاقة، ويجيدون الأدب والشعر.

لـم يكـن فــي خــاطرهم أنــه سـيكون علــى هـذه الأرض خيـر خلـق الله (محمـد بـن عبـد الله صــلوات الله وســلامه عليــه) وبالتحديـد علــى أرض مكـة (مكــة المكرمــة) أم القـرى، مكـة التــي بهــا البيـت العتيـق بيـت الله الحــرام الــذي رفــع قواعـده وأتـم بنــاءه أبـو الأنبيــاء سـيدنا إبراهيم عليه السلام.

* * *

-٢-

رؤيا حفر زمزم

وفي وسط كل ذلك وفي غمرة الحياة يستيقظ عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي من نومه فزعا ذات ليلة إذ رأى في منامه هاتفا يقول له: احفر زمزم.. احفر زمزم فتقلب في نومه واستراح قليلا وعاود نومه مرة ثانية وإذا به يرى نفس المنام: احفر زمزم.. احفر زمزم. فقام من نومه وخرج من بيته ليتأمل ويفكر ما هي زمزم ولماذا أنا بالذات؟ وهو يتأمل الصحراء المترامية الأطراف في سكون هذا الليل البهيم حتى أشرقت عليه شمس الصباح.

وفي الصباح التقى بأهله وعشيرته وقص عليهم ما رأى. قال قائل: إنه بئر زمزم القديم فقد كان في سالف الزمن بئر يقال له زمزم الذي انفجر لإسماعيل بن إبراهيم (عليهما السلام) عندما كانت أمه هاجر تبحث له عن المياه في هذه المنطقة وأشار بيده إلى ما بين جبلي الصفا والمروة.

وكان في هذه المنطقة بالذات التي حددها أهل قريش يقع بها أكبر صنمين للآلهة وهم: إساف ونائلة وهما من أفضل الأرباب عند العرب لأن لهما قصة عشق يتبادلونها في سمرهم

وأحاديثهم.

وبئر زمزم يقع بينهما ولن تقبل العرب الحفر بين آلهتهم، وبالفعل شرع عبد المطلب في حفر البئر إلا أن أهل مكة وقفوا له ومنعوه بالقوة أن يفعل ذلك فعبد المطلب ليست له عصبية تحميه فله من الأبناء ولد واحد.

حزن عبد المطلب حزنا شديدا ونذر لله نذرا لو رزقه الله بعشرة من الأبناء سيذبح أحدهم قربانا عند الكعبة.

وكأن أبواب السماء كانت مفتوحة إذ استجاب الله تعالى لدعائه ورزقه الله بالأبناء واحدا تلو الآخر كل عام إلى تمام العشرة أبناء.

* * *

-٣-

فداء الذبيح

كبر الأبناء حتى صار أصغرهم رجلا، وهو (عبد الله بن عبد المطلب) ابن أربعة وعشرين عاما من العمر وأتى عبد المطلب بأبنائه العشرة ليوفي نذره وهو ذبح أحد أبنائه قربانا للآلهة عند الكعبة، وكعادة العرب تُجرى قرعة عن طريق العرافين والكهان، وأجُريت القرعة وخرجت على عبد الله وكان عبد الله أصغر أبناء عبد المطلب وأحسنهم خلقا وكرما ومودة لأهله وغضبت قريش كلها محبة في عبد الله وقالوا: فلنبحث عن حل نفديه به مهما يكن، وسألوا العرافة: ما الحل؟ قال أحد العرافة (وهو كبيرهم) تجري القرعة على عبد الله وعلى الدية المدفوعة للحر وكانت دية الحر عشرا من الإبل (والدية هي ما يُدفع عوضا عن حياة من مات خطأ أو سُفك دمه أو قتل).

وأجريت القرعة وجاءت على عبد الله فزيدت الإبل عشرا أخريات والعراف يزيد الإبل عشرا بعشر إلى أن جاءت القرعة على عشر ديات (أي مائة من الإبل)، ونُحرت الإبل فداء لعبد الله وباتت مكة كلها فرحة مسرورة بفداء عبد الله.

* * *

-٤-

الذبيحين

دائما يقال: أن سيدنا رسول الله ﷺ ابن الذبيحين فمن هما الذبيحان؟

الذبيح الأول: هو إسماعيل نبي الله عليه السلام ابن إبراهيم أبو الأنبياء عليه السلام عندما أمر الله سيدنا إبراهيم عليه السلام بذبح ولده إسماعيل إذ قال تعالى:

{رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ}. [الصافات ١٠٠ - ١٠].

فهذا هو الذبيح الأول، فبعد ما هم سيدنا إبراهيم بذبح ولده إسماعيل عليهما السلام افتداه رب العزة بذبح عظيم.

أما الذبيح الثاني: هو عبد الله بن عبد المطلب والد سيدنا رسول الله ﷺ كما ذكرنا آنفا.

* * *

-٥-

زواج عبد الله بن عبد المطلب ووفاته

فكر عبد المطلب في زواج عبد الله وهو أصغر أبنائه وأحبهم إلى قلبه والكل يعرفه ويحبه وذاع صيته وشهرته بعد فدائه من الذبح وقال عبد المطلب: والله لأزوجن عبد الله من أحسن فتيات قريش وأشرفهن نسبا وحسبا وجمالا.

واختار له شريفة من شريفات قريش وهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف ابن زهرة بن كلاب بن مرة (وآمنة من الأمن والأمان) وهي حسيبة ونسيبة.

عاش الزوجان عدة شهور وهي فترة وجيزة من الزمان، وفي الروايات من يقول شهرين ومن يقول أربع ثم توفى عبد الله بن عبد المطلب وهو في طريقه إلى يثرب لزيارة أخواله هناك وأصبحت آمنة أرملة وفي بطنها جنين يتحرك.

* * *

-٦-

عام الفيل

هذا العام هو الذي وافق ٥٠ ميلاديا تقريبا، والذي سمي عام الفيل، حيث أغارت جيوش أبرهة الأشرم حاكم اليمن والحبشي الأصل على مكة المكرمة ليهدم بيت الله الحرام والكعبة المشرفة، وكانت جيوشه كبيرة يتصدرها عدد هائل من الفيلة الضخمة وكانت نية أبرهة من هذا الهدم: هو صرف العرب عن زيارة الكعبة ليذهبوا إلى كنيسته باليمن حيث أقام باليمن كنيسة ضخمة جدا وأنفق عليها وجعلها فاخرة وسماها (القُلّيس) لتكون قبلة للعرب ويحجوب إليها بدلا من الكعبة المشرفة.

واتجه أبرهة بجيوشه قاصدا الكعبة وكان يضرب من يلقاه ويغتنم ما يصادفه حتى إذا مر بأرض عبد المطلب أخذ مائتي بعير له وطار الخبر ووصل عبد المطلب ثم التقى برسول أبرهة الذي قال له: لسنا دعاة حرب وإنما جئنا لهدم البيت ولا حاجة لنا بالحرب.

وذهب عبد المطلب للقاء أبرهة وكان ذا وجاهة وكبرياء ومن يراه يرهبه ويخشاه فهو سيد قريش وكبيرها وهو المتصرف في شؤونها وهو صاحب بئر زمزم في نظر العرب.

وحين رأى أبرهة كبير العرب أجله وقدره وسأله: ما حاجتك؟ قال عبد المطلب: حاجتي أن ترد عليَّ إبلي (فمقته أبرهة على هذا الطلب حيث أنه لم يدافع عن البيت الحرام).

قال أبرهة: أمالك حاجة أخرى كالبيت الحرام مثلا؟

قال عبد المطلب قولته المشهورة: أما الإبل فأنا ربها وأما البيت فله رب يحميه.

فرد أبرهة على عبد المطلب إبله.

وتقدم أبرهة بالجيوش لهدم الكعبة والبيت ولكن السماء كانت لأبرهة وجيوشه بالمرصاد إذ بركت الفيلة في الأرض ولم تتقدم نحو البيت أو الكعبة ليحفظ الله بيته ولتكن آية.

غضب أبرهة وانهالت السياط على الفيلة من الجنود لكي تتقدم وتقوم بالعمل الموكل إليها ولكن أبت مشيئة الله أن يُهدم البيت وأمطرت السماء حجارة صغيرة تحملها طيور صغيرة الحجم في مناقيرها وأرجلها، ولها تأثير القنابل الذرية والهيدروجينية، لقد كانت حجارة من نار جهنم تنزل على جند أبرهة لتقصفه في الحال وكانت تعمل مقام أعظم أسلحة اليوم ولكل جندي حجر لا يتركه إلا وهو هشيم كالعصف المأكول (والعصف المأكول كما قال الفقهاء: هو ما يخرج من فم الحيوان

بعـد مضـغه وهـي الحيوانـات المجتـرة) وقـد صـور لنـا ذلـك القـرآن الكريم في سورة الفيل. قال تعالى:

{أَلَـمْ تَـرَ كَيْـفَ فَعَـلَ رَبُّـكَ بِأَصْـحَابِ الفِيـلِ * أَلَـمْ يَجْعَـلْ كَيْـدَهُمْ فِـي تَضْـلِيلٍ * وَأَرْسَــلَ عَلَـيْهِمْ طَيْـراً أَبَابِيــلَ * تَــرْمِيهِم بِحِجَـارَةٍ مِّــن سِــجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ} [سورة الفيل].

وحفظ الله البيت الحرام والكعبة.

* * *

--

رؤيا آمنة بنت وهب

بعد أن أبيدت جيوش أبرهة الأشرم وهزمهم الله شر هزيمة وفرحت مكة والجزيرة العربية كلها بنجاة البيت العتيق والكعبة رأت آمنة بنت وهب مناما إذا رأت نفسها وقد خرج منها نور عظيم أضاء المشرق والمغرب وأضاء قصور بصرى بالشام وامتد حتى عنان السماء.

وعاشت آمنة لا تعرف تأويلا أو تفسيرا لهذه الرؤيا.

* * *

-٨-

مولد الهدى

في ليلة مباركة أضاء فيها الله كل الدنيا شُرفت الأرض والسماء بمولد خير الورى مولد الهدى على الأرض مولد الخير، وانكسار الظلم، ودحر الوثنية إنه النور الذي يضيء الدنيا بعد ظلام في ليلة الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول وضعت آمنة بنت وهب مولودها خير خلق الله. قال أحمد شوقي في الهمزية النبوية:

وُلد الهدى فالكائنات ضياء ::: وفم الزمان تبسّم وثناء
الروح والملأ الملائك حوله ::: للدين والدنيا به بشراء

وفي موضع آخر:

يا خير من جاء الوجود تحية ::: من مرسلين إلى الهدى بك جاؤوا

كانت الدنيا قبل مولده في ظلام حالك تتنافس فيها قوى الشر آنذاك وهما الفرس والروم، وكانت الروم وقتها ضعيفة أما الفرس فكانت في أوج قوتها وبمولد المصطفى ظهرت البشرى وظهرت علامة النور إذ تصدع إيوان كسرى (قصره) وتحطم منه أربع عشرة شرفة، حتى نارهم المقدسة التي يعبدونها أطفأها الله إيذانا بزوال هذا الكفر حتى بحيرة ساوة المقدسة عند الفرس

نضبت وجف منها الماء.

إنهــا والله معجــزات تصــاحب مولــده. قــال عنهــا الإمــام البوصيري في بردة المديح:

أبــان مولــده عــن طيــب عنصــره ::: يــا طيــب مبتــدأ منــه ومختــتم
يــوم تفــرس فيــه الفــرس أنهــم ::: قــد أنــذروا بحلــول البــؤس والــنقم
وبــات إيــوان كســرى وهــو منصــدع ::: كشــمل أصــحاب كســرى غيــر ملتــئم
والنــار خامــدة الأنفــاس مــن أســف ::: عليــه والنهــر ســاهي العــين مــن ســدم
وســاء ســاوة أن غاضــت بحيرتهــا ::: ورد واردهــا بــالغيظ حــين ظمــي

أنهــا والله لمعجــزات جمــة أتــت ابتهاجــا بمولــد الحبيــب وتبديــد الظلمة وإظهار النور الذي ملأ كل أرجاء الدنيا.

* * *

-٩-

تسمية الحبيب

طار خبر ولادة الحبيب محمد إلى جده عبد المطلب الذي فرح فرحا شديدا بمولد حفيده وظل يطوف به حول الكعبة تبركا بها وكانت قريش كلها تحب عبد الله ففرحوا بمولد الحبيب حتى عمه أبو لهب فرح فرحا شديدا ويروى في السلف: أنه اعتق جاريته التي أبلغته بالخبر، ثم أقام عبد المطلب الولائم ونحر الذبائح حبا وفرحا بحفيده الصغير.

وروى في السلف: أن جده عبد المطلب أثناء نومه آتاه هاتف وهو نفس الهاتف الذي جاءه من قبل وقال له: احفر زمزم جاءه مرة أخرى وقال: سمه محمد أو أحمد.

فتذكر هذا الاسم وظل يردده وهو وسط قبيلته، سأله الحاضرون بم تسمى حفيدك؟

قال: محمدا.....

سألوه لماذا محمدا؟ ولماذا تركت أسماء آبائنا وأجدادنا وآلهتنا العظام؟

قال: محمدا ليكون محمودا في الأرض ومحمودا في السماء. وتقول رواية أخرى: أن أمه آمنة بنت وهب رأت رؤيا في

منامهــا أن تســميه محمــدا ليكــون محمــودا فــي الأرض وفــي الســماء وأبلغت عبد المطلب رؤياها فسماه محمدا.

وعلــى كــل الأحــوال فهــو أحمــد ومحمــد ومحمــود فــي الأرض وفي السماء.

* * *

-١٠-

رضاعة الحبيب والبادية

كانت من عادة القرشيين وأهل مكة أن يبعثوا بأطفالهم الرضع إلى بادية يثرب فهي صحراء مترامية الأطراف، هواؤها نقي يزيد من صحة الأطفال وبنيانهم وبعد ولادة الحبيب أرضعته (ثويبه) جارية عمه أبو لهب أياما قليلة وبعد ذلك ذهبت أمه للمرضعات حيث يتجمعن في مكان ليأخذن الأطفال الرضع لإرضاعهم مقابل أجر.

وكانت المرضعات تبحث أولا عن أهل الرضيع لأنهن يردن الأطفال الأغنياء حتى يجزلوا لهم العطاء.

ولذلك أعرضت كل المرضعات عن خير خلق الله محمداً لأنه يتيم فقير.

وبقيت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية بلا رضيع وظل الحبيب بلا مرضعة. وفكرت حليمة السعدية أن تأخذ الطفل اليتيم فقد ألقى الله محبته في قلبها وهمست لزوجها بما تنتوي وما عزمت عليه، فوافق الزوج وأخذته رضيعا عندها.

أتت حليمة وسط قومها من بادية بني سعد ويرافقها زوجها وابنها الرضيع، وهي تمطتى دابة هزيلة، ويركب زوجها ناقة هرمة مسنة عجوزة لا خير فيها ولا لبن، وكان ابنها الرضيع

يصرخ ويبكي ويتألم جوعا.

أخذت حليمة الطفل اليتيم محمداً ﷺ حتى لا تعود إلى بادية بني سعد بلا رضيع ودخلت خيمتها وألقمته ثديها الذي كان قليل اللبن وإذ بها ترى العجب! الرضيع يرضع ويشبع وتجد اللبن متدفقا حتى شبع الرضيع وحاولت أن تعطيه ثديها الآخر إلا أنه أبى تاركه لأخيه في الرضاعة.

إنها القناعة التي رباه عليها رب العزة.

ونظر زوج حليمة إلى ناقته مستعدا للرحيل فوجد ضرعها مملوءا باللبن بعد أن كانت جافة لا تحلب لبنا فتعجب الرجل وحلب منها اللبن وأعطاه للطفلين فشربا وارتويا وعادت جميع المرضعات إلى البادية ولكن ثمة شيء غريب حدث، فدابة حليمة الهزيلة التي كانت متخلفة عن الركب دبت فيها قوة غريبة إذ سبقت جميع الدواب، إنها البركة وتعجب الناس!

وصلت جميع المرضعات إلى بادية بني سعد وفي وسطهن حليمة وهي تحمل أشرف خلق الله كلهم.

يقول الإمام البوصيري في القصيدة المحمدية:

محمد أشرف الأعراف والعجم ::: محمد خير من يمشي على قدم

وصلت حليمة إلى دارها ونام الرضيع وأخوه فقال لها

زوجها: والله يا حليمة لقد أصبت نسمة مباركة، وتمر الأيام وإذا بكل شيء عند حليمة ينمو فأنعامها تزداد بسرعة غير مألوفة تمتلئ ضروعها وأرضها الجدباء ينمو زرعها وتزيد البركة في دارها.

ويزداد حب حليمة وزوجها لمحمد فقد كان محمد وديعاً باسما لا يصرخ ولا يبكي إلا إذا تعرى فقط. لقد كان قنوعا راضيا بقسمته في كل شيء.

ظل الطفل الرضيع محمد يرضع من أمه حتى الفطام لمدة عامين وأتت آمنة بنت وهب لتأخذه فتوسلت بها حليمة أن تُبقيه معها ليشب في الهواء النقي بالبادية وليكون صحيحا يشب على قوة أبناء البادية وبعد الإلحاح الشديد وافقت آمنة وبقي محمد بن عبد الله عند أمه حليمة السعدية ومعه تزداد البركة في البادية.

* * *

-١١-

شق الصدر

بعد ما توسلت حليمة السعدية بآمنة بنت وهب ليبقى محمد بالبادية ووافقت كان يخرج مع أخيه في الرضاعة لرعي الغنم وبينما هما كذلك أتى رجلان وأمسكا بالحبيب محمد وهرع أخوه خوفا وذهب إلى أمه وأبيه مسرعا ويقول: يا أماه لقد مات محمد!

وهدأته حليمة وسألته ما الخبر؟ قال أخوه:

ونحن جالسان وأمامنا الغنم تأكل وترعى إذ أتى رجلان عليهما ثياب بيض وأمسكا بأخي محمد وشقا صدره فخشيت منهما وأتيت إليكم مسرعا.

خرجت حليمة على الفور هي وزوجها وابنهما ليروا الخبر ووصلوا إلى الحبيب فوجدوه ملقا على ظهره ينظر إلى السماء مفتوح العينين ينتفض خوفا فضمته حليمة إلى صدرها وسألته عما حدث قال الحبيب محمد: بينما أنا جالس ومعي أخي إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض وأضجعاني على ظهري وشقا صدري وأخرجا منه جزءا لا أعرفه وغسلاه بماء من عندهما وأخرجا شيئا آخر ورمياه بعيداً عني ثم أعادوني حيث كنت أجلس، وانصرفا.

ويقول المفسرون والعلماء:

إن هذا هو حادث شق الصدر الأول الذي حدث لسيدنا رسول الله ﷺ وأن الشيء الذي أخرج وغُسل هو قلبه ويقولون: أنه غُسل بماء من زمزم، والشيء الآخر الذي رمياه بعيدا هو: حظ الشيطان من جسم الإنسان والعهدة على من روى.

* * *

-١٢-

نسب محمد ﷺ

هـو محمـد بـن عبـد الله بـن عبـد المطلـب (عبـد المطلـب اسـمه شيبه وسنورد ذكر قصة اسمه في نهاية هذا الفصل).

محمـد بـن عبـد الله بـن عبـد المطلـب بـن هاشـم بـن عبـد منـاف بـن قصـي ابـن كـلاب بـن مـرة بـن كعـب بـن لـؤي بـن غالـب بـن فهـر بـن مالـك بـن النضـر بـن كنانــة بـن (خزيمــة) بـن مدركـة بـن إليـاس بـن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

ونسبه ﷺ لأمه هو:

آمنـة بنـت وهـب بـن عبـد منـاف بـن زهـرة بـن كـلاب بـن مـرة إلـى عدنان فهو خيار من خيار.

عـن واثلــة بـن الأسـقع قـال: سـمعت رسـول الله ﷺ يقـول: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**» (١). [أخرجه مسلم والترمذي].

أمـا بالنسـبة لعبـد المطلـب بـن هاشـم بـن عبـد منـاف فاسـمه (شـيبه) ويقـال: شـيبه الحمـد. عنـدما ولـد شـيبه تركـه أبـوه هاشـم عنـد أخوالـه بيثـرب، وتركـه ليتربـى ويترعـرع هنـاك، وكـان لهاشـم أخ اسـمه

(١) الجامع لأوصاف الرسول: (تحقيق أ. أيمن صالح) ص ١٨.

المطلب بن عبد مناف بن قصي، وبعد وفاة هاشم وجد المطلب أنه لابد من إحضار شيبه ابن أخيه هاشم من يثرب ليعيش بين أهله وعشيرته، وبالفعل أحضره وهو غلام إلى مكة، فظن القريشيون أن المطلب قد اصطحب عبداً له، فقالوا: هذا عبد المطلب (عبد.. من العبودية) وكان يقول لهم: هذا هو شيبة ابن أخي هاشم ولكن لم يلتفت أحد إلى ذلك وظن الجميع أنه عبد المطلب، وظل يسمي عبد المطلب طوال حياته.

* * *

-١٣-

عودة الحبيب ﷺ إلى مكة وموت آمنة

بعد قضاء خمس سنوات في البادية أخذت آمنة بنت وهب وليدها وظل في حضن أمه ترعاه في حالة حزن على أبيه وهو دائم الشرود والتأمل ورأت آمنة أن تذهب إلى يثرب (مدينة سيدنا رسول الله) لتزور قبر أبيه عبد الله بن عبد المطلب فأخذت معها وليدها محمد ﷺ وحاضنته أم أيمن وذهبوا ليثرب وزاروا قبر عبد الله ومكثوا شهراً كاملاً وخرجوا عائدين إلى مكة وآمنة تركب بعير وأم أيمن تحتضن الحبيب على بعير آخر وفي وسط الطريق وعند نقطة اسمها الأبواء كانت الفاجعة الكبرى. ماتت آمنة فبكاها الحبيب وبعد أن كان يتيم الأب أصبح يتيم الأب والأم معا.

عاد الحبيب ﷺ مع حاضنته أم أيمن بعد ما دفنوا آمنة بالأبواء وهي منطقة في منتصف الطريق بين يثرب ومكة، وكانت عودته حزينة لفراق أمه. أي طفل هذا الذي يتحمل كل ما تحمله الحبيب وهو ابن ست سنوات، ولكن عناية الله لم تتركه فقال تعالى:

{وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى} [الضحى: ٥- ٨].

إنها عناية الله وحفظه من كل سوء ومن كل شر.

* * *

-١٤-

كفالة الحبيب

بعد موت آمنة، أحس محمد باليتم الحقيقي، ولكن جده عبد المطلب لم يتركه وكفله وكان يلاحظ أنه دائم السكوت والتأمل ولا يذهب أبداً للوقوف أمام الأصنام؛ لأنه يبغضها ولا يلعب مع الصغار ويفكر في كل شيء، وكان صادقا في حديثه ولا يمزح أبداً وعند ذكر الأصنام يتأذى ولا يتحدث عنها وكأنه إبراهيم أبو الأنبياء عليه السلام في بغضه لهذه الأصنام والأوثان، وعند بلوغه الثامنة من عمره مات جده عبد المطلب، ليتركه ليعاود الأحزان التي اعتاد عليها منذ ولادته.

لقد حرمه القدر من أكبر نصير له جده عبد المطلب ولكن عناية الله دائما تدركه ولا تتركه فكفله عمه أبو طالب وكان يحبه حبا كثيرا ويقدمه على أبنائه ويعطف عليه ويكرمه كرما عظيما وقال محمد لعمه أبى طالب: أيا عماه إنى كبرت وأريد أن أعمل لأكتسب قوتى من عمل يدى! فقال عمه: يا محمد أنت مازلت صغيرا. حتى بلغ الثانية عشر أو الثالثة عشر من عمره وأخذه عمه فى قافلته التجارية المتجهة إلى الشام، وسارت القافلة حتى وصلت إلى بُصرى مدخل الشام (سوريا)، وكانت القوافل

العربيــة عنــد وصــولها إلــى بصــرى يســتظلون بجــوار ديــر للمســيحيين بــه راهــب مــن الرهبــان المتمكنــة فــى ديــنهم يــدعى (بحيـرى)، ولمـا وصـلت القافلـة التـى بهـا الحبيـب حطـت رحالهـا للراحـة بجـوار هـذا الـدير، ورآهـم بحيـرى وهـو جـالس فـى شـرفة بـأعلى الـدير، وأثنـاء قـدوم القافلـة لاحـظ سـحابة غريبـة تسـير فـى اتجـاه الـدير بـالرغم مـن صـفاء الجـو وصـحوه ووجـدها تسـير مـع القافلة وكانت السحابة تشبه طيرا بأجنحته.

وصــلت القافلــة وجلســت بــالقرب مــن الــدير للراحــة دعــا (بحيـرى) أفـراد القافلـة لتنـاول الغـداء عنـه، وهـى أول مـرة تحـدث فلطالمـا مـرت القوافـل ولـم يصـنع (بحيـرى) هـذا الصـنيع، وكـان مـن العلمـاء بالإنجيـل ويعـرف علامـات نبـى آخـر الزمـان (محمـد ﷺ)، فتفقـد أفـراد القافلـة وأخيـرا سـأل: هـل تخلـف أحـد عـن الحضـور؟ قـالوا: نعـم هنـاك صـبيا تركنـاه فـى الخـارج يُـدعى محمـدا، قـال (بحيـرى): ائتـونى بـه، ومـا أن دخـل (محمـد) علـى (بحيـرى) عرفـه مـن الأوصـاف التـى يجـدها عنـده فـى الإنجيـل وعـرف أنـه هـو النبـى المنتظـر وهـو نبـى آخـر الزمـان، فقـد رأى فـى عينيـه النبـوة وأثنـاء تفحصـه فـى وجـه الحبيـب أمسـك بـه فـأحس بخـاتم النبـوة الـذى بـين كتفـى محمـد وعـرف أيضـا أن الغمامـة (السـحابة) كانـت تظلـه طـوال الطريق.

قال عنها الإمام البوصيرى فى بردة المديح:

مثل الغمامة أنى سار سائرة ::: تقيهِ حر وطيس للهجير حمى

وسأل (بحيرى) أبا طالب لمن يكون هذا الغلام؟ رد أبو طالب: إنه ابنى.

قال بحيرى: لا ينبغى أن يكون والد هذا الطفل حيا**!**

قال أبو طالب: إنه ابن أخى مات أبوه وهو فى بطن أمه.

قال الراهب: عد بابن أخيك وأبعده عن اليهود فدهش أبو طالب وقال: ما شأن اليهود به؟ قال: لو عرفه اليهود لقتلوه، عد بابن أخيك إنه سوف يكون له شأن عظيم.

ويذكر أبو المكارم محمد بن عبد الله بن الواسطى البغدادى غياب الدين المعروف (بابن العاقولى) [١] أن بحيرى قال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، هذا يبعثه الله حجة للعالمين. قالوا: فمن أين عرفت هذا؟ قال: إنكم حين أقبلتم من العقبة لم تبق صخرة ولا حجر إلا خر ساجدا ولا يسجد إلا لنبى، وإنا نجده فى كتبنا، وسأل أبا طالب أن يرده خوفا من اليهود.

ويقول ابن هشام فى السيرة النبوية:

---

(١) الجامع لأوصاف الرسول: (تحقيق أ. أيمن صالح)، ص٣١.

فنزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريبا من صومعة راهب من الرهبان فاطلع الراهب إلى ميسرة. فقال له: من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة؟ قال له ميسرة: هذا الرجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى (والمقصود هنا فى ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى أى فى هذه الساعة) [١].

* * *

(١) سيرة ابن هشام: تحقيق د. محمد فهمى السرجانى جـ ١.

-١٥-

شباب الحبيب

نشـأ الحبيـب المصـطفى صـلوت الله وسـلامه عليـه نشـأة زهـد لـيس فيهـا تـرف ولا انحـلال كارهـا لحانـات السـكر فقـد حفظـه الله مـن كـل شـر. لقـد شـاءت إرادة الله تعـالى أن يكـون يتيمـا منـذ ولادتـه ليعـرف آلام اليـتم وليكـون حنونـا رؤوفـا رحيمـا علـى الأيتـام ونشـأ فقيرا ليعرف آلام الفقراء والمساكين.

كان محمد ﷺ شابا يافعا يعمل برعى الغنم وهذه المهنة علمته الصبر فمعظم وقته مع الأغنام يتأمل أحوالها ويفكر فى أحوال الدنيا ويتأمل فـى الكون ولمن يكون هذا الكون؟ لابد لـه من إله واحد، ورعى الغنم يحتـاج لوقت كبير فهو من مطلع الشمس حتى الغروب.

لقـد أراد الله تعـالى أن يبعـده عـن كـل شـئ ويسـتره مـن كـل عيـب، ويحضرنى ما قرأت عن حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال: حـدثنى أبو العباس بن عبد المطلب قـال: لمـا بنـت قـريش الكعبـة انفـردت رجلين رجلين ينقلون الحجارة، فكنت أنا وابن أخى، فجعلنا نـأخذ أزرنـا فنضـعها علـى مناكبنـا ونجعـل عليهـا الحجـارة فـإذا دنونـا مـن النـاس لبسـنا أزرنـا، فبينمـا هـو أمـامى إذ صـرع فسـعيت وهـو شـاخص ببصـره إلـى السـماء فقلت: يا ابن أخى مـا شـأنك؟ قـال: نهيـت أن أمشـى عريـان، قـال: فكتمتـه

حتى أظهر الله نبوته[١].

كان رعيه للغنم هو مصدر رزقه الوحيد ويفخر بذلك بعد بعثته ﷺ.

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما بعث الله نبيا إلا راعى غنم**»، فقال له أصحابه: وأنت يا رسول الله، فقال: «**وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط**» (أى بالمال)[٢].

وكم كانت أمانته وسط قريش وصدق حديثه حتى لقبه الجميع بالصادق الأمين.

بلغ الحبيب خمسة وعشرين عاما من العمر وذاع صيته بالأمانة والشرف وصدق الحديث وبلغت خديجة بنت خويلد أخباره فأرسلت إليه.

* * *

(١) المولد النبوى: تحقيق أ. إبراهيم العطار، ص ٤٤.

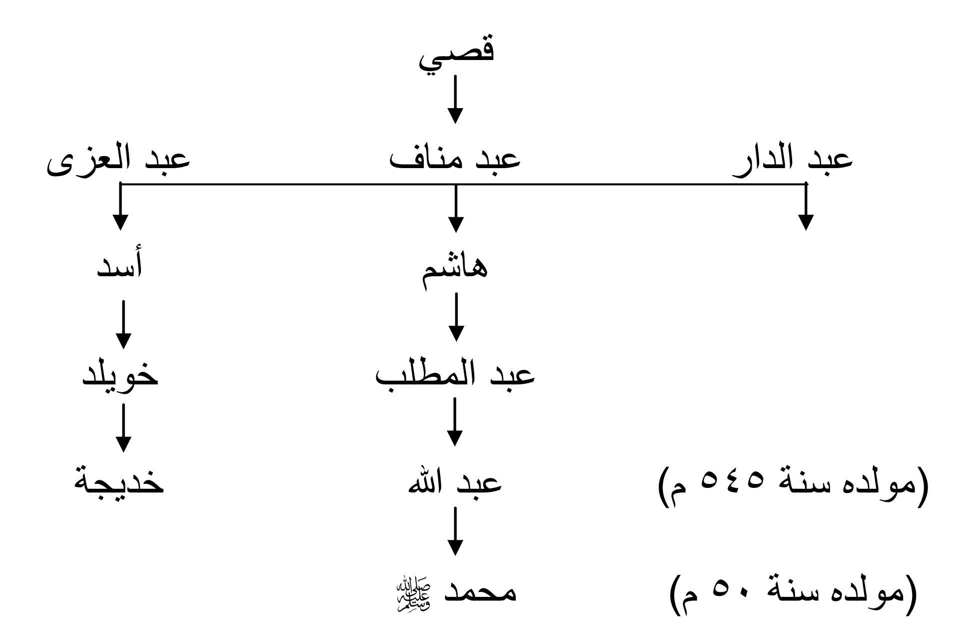
(٢) رواه ابن سعد والبخارى وابن ماجة.

-١٦-

الحبيب وخديجة

أولا: من هى خديجة!

هى خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب بن مرة، فهى أقرب من محمد ﷺ درجة إلى جدها قصى ويبين الرسم الآتى ذلك:



فخديجة شريفة من أشراف قريش وصاحبة حسب ونسب وهى من أغنياء قريش وكانت تستأجر الرجال لتجارتها بعد موت زوجها وقد كانت مطمعا لكل رجال قريش.

تقول بعض الروايات: أن أبا طالب ذهب إلى خديجة وقال لها: إن محمدا ابن أخى فقيرا وأرجو أن تجعليه من رجالك يتاجر بأموال مثل غيره فأرسلت إليه.

ورواية أخرى تقول: أن خديجة بنت خويلد سمعت عن صدقه وأمانته فأرسلت إليه ليتاجر لها فى مالها.

وخرج محمد فى تجارة السيدة خديجة وهو ابن خمسة وعشرون عاما ومعه غلام السيدة خديجة ميسرة الذى رافق محمد طوال الرحلة.

* * *

-١-

زواج الحبيب

بعـد عـودة القافلـة مـن الشـام أخـذ ميسـرة يحـدث سـيدته خديجـة بمـا كـان مـن أمـر محمـد وحـين التقـى الحبيـب ﷺ بخديجـة رأت فيـه جمـالا وصـدقا وعذوبـة حـديث وعـزة نفـس لـم تشـهدها مـن قبـل وجلـس ميسـرة بعـد خـروج الحبيـب مـن دار خديجـة لـيقص عليهـا مـا كـان بالرحلـة ومـا كـان مـن محمـد ﷺ وصـدقه فـى التجـارة والمعاملـة وحسن خلقه وعذوبة لسانه وقص عليها ما قاله الراهب بحيرى.

تسـرب الحـب إلـى قلـب خديجـة بنـت خويلـد الملقبـة بالطـاهرة بـين شـريفات قـريش وهـى العفيفـة الغنيـة التـى يطمـع فيهـا كـل رجـال قـريش لنسـبها وحسـبها ومالهـا وشـرفها فهـى الشـريفة الطـاهرة وقـد ذكرنا نسبها سابقا.

ويـذكر ابـن هشـام فـى السـيرة أن خديجـة بعثـت إلـى محمـد ﷺ فقالـت لـه فيمـا يزعمـون: يـا بـن عـم، إنـى قـد رغبـت فيـك لقرابتـك، وسـطتك فـى قومـك وأمانتـك، وحسـن خلقـك، وصـدق حـديثك، ثـم عرضـت عليـه نفسـها وكانـت خديجـة يومئـذ أوسـط نسـاء قـريش نسـبا، وأعظمهـن شـرفا وأكثـرهن مـالا، وكـل قومهـا كـان حريصـا

على ذلك لو يقدر عليه [١].

خرج محمد ﷺ من عند خديجة وقص على أعمامه ما سمع وحضر الحبيب مع أعمامه ليخطبوها له فى دار خديجة ويقول الأستاذ / محمد عطية الأبراشى [٢]:

أن خويلد والد خديجة كان متوفيا فخطبها عمه أبو طالب من ابن عمها ورقة بن نوفل وخطب أبو طالب فقال: الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم.. وجعل لنا بيتا محجوجا، وحرما آمنا، وجعلنا الحكام على الناس. ثم ابن أخى هذا محمد بن عبد الله ﷺ، الذى لا يُوزن برجل إلا كان أفضل منه فإن كان قليل المال فإن المال زائل. ومحمد ممن عرفتم قرابته وقد خطب خديجة بنت خويلد وأعطاها المهر كذا وكذا وله فى خديجة رغبة.

وهو والله بعد هذا له مستقبل عظيم، ومركز جليل وبعض الروايات تقول: أن الذى خطب خديجة لمحمد ﷺ هو عمه حمزة.

وتزوج الحبيب من خديجة بنت خويلد الشريفة الحسيبة التى أحبت الحبيب ﷺ حبا عظيما وأنجبت له كل أولاده (ما عدا إبراهيم) [٣] فولدته له:

---

(١) سيرة ابن هشام: ص ١٩١، جـ١.

(٢) من سلسلة حياة أعظم الرسل.

(٣) إبراهيم من السيد مارية القبطية.

القاسم، عبد الله الملقب الطاهر والطيب، وقد وُلد قبل بعثة المصطفى ﷺ أما باقى أولاده فهم: زينب، رقية، أم كلثوم، فاطمة الزهراء.

- أما زينب فتزوجت من أبى العاص بن الربيع بن عبد شمس.
- ورقية تزوجت من عتبة بن أبى لهب عم رسول الله ﷺ.
- أم كلثوم تزوجت من عتيبة بن أبى لهب أيضا.

وبعد الإسلام طُلقت رقية وأم كلثوم لأنه لا يجوز للمسلمة الزواج من مشرك ولذا أمر أبو لهب أبناءه بتسريحهما.

ثم تزوج عثمان بن عفان رضي الله عنه من رقية، وبعد وفاتها تزوج أم كلثوم، وبزواجه من ابنتى سيدنا رسول الله ﷺ لُقب بذى النورين.

- أما فاطمة الزهراء فتزوجت من الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى عنه.

* * *

-١٨-

تحكيم الحبيب ﷺ فى وضع الحجر

رأت قريش أن الكعبة قد تصدعت فقرروا إعادة بناء الكعبة من جديد والكل يخاف الهدم مهابة من البيت ثم اتفقوا فيما بينهم أن يتم تجزئة الكعبة فى الهدم بين القبائل، ويقول ابن هشام فى السيرة النبوية: فكان شق الباب لبنى عبد مناف وزهرة، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم، وقبائل من قريش انضموا إليهم. وكان ظهر الكعبة لبنى جماح وسهم (ابنى عمرو بن هيصيص بن كعب بن لؤى) وكان شق الحجر لبنى عبد الدار ابن قصى، ولبنى أسد بن عبد العزى بن قصى، ولبنى عدى بن كعب بن لؤى وهو الحطيم [١].

وبدؤوا بالفعل فى هدم الكعبة وأول من تقدم هو الوليد بن المغيرة [٢] وبدأ الهدم وإعادة البناء.

جمعت قريش الحجارة كل قبيلة تبنى ما شاء لها أن تبنى حتى أتموا بناء الكعبة حتى إذا وصلوا إلى الركن وفيه موضع الحجر، اختصمت كل القبائل على وضع الحجر فكل قبيلة تود أن تضع هى الحجر، وتربصت القبائل بعضها ببعض واستعدوا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (تحقيق د / السرجانى)، ص ١٩.

(٢) والد خالد بن الوليد.

للقتال، ثم تحالف بنو عبد الدار وبنو عدى بن كعب ابن لؤى ووضعوا أيديهم فى جفنة مملوءة بالدم أسموها: لعقة الدم، وظل الحال على ما هو عليه خمس ليالى.

ولكن أبا أمية بن المغيرة [(١)] عرض على القبائل المتناحرة الحل وهو تحكيم أول من يدخلهم عليهم وكان أبو أمية بن المغيرة أكبرهم سنا.

وبعد فترة وجيزة دخل عليهم الحبيب ﷺ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الملقب بالصادق الأمين يقول ابن هشام فى السيرة النبوية:

(فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه بالخبر، قال ﷺ: هلم إلى ثوبا، فأتى بى، فأخذ الركن (الحجر) فوضعه فيه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوا جميعا، ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده، ثم بنى عليه)

إنها ليست مصادفة ولكن هى إرادة الله ومشيئته أن يكون الحبيب ﷺ هو الذى يضع الحجر بنفسه ويشرف الحجر بصنيع محمد ﷺ وارتضت كل القبائل ذلك.

* * *

---

(١) شقيق الوليد بن المغيرة.

-١٩-

أخلاق الحبيب ﷺ قبل البعثة

يقول فضيلة الشيخ صفى الرحمن المباركفورى:

كان النبى ﷺ يمتاز فى قومه بخلال عذبة وأخلاق فاضلة وشمائل كريمة فكان أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقا، وأعزهم جوارا، وأعظمهم حلما، وأصدقهم حديثا، وألينهم عريكة [١]، وأعفهم نفسا، وأكرمهم خيرا، وأبرهم عملا، وأوفاهم عهدا، وآمنهم أمانة حتى سماه قومه " الأمين" لما جمع فيه من الأحوال الصالحة والخصال المرضية، وكان كما قالت أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها: يحمل الكل [٢] ويكسب المعدوم، ويقرى [٣] الضيف ويعين على نوائب الحق [٤][٥].

* * *

---

(١) عريكة: طبعا.

(٢) الكل: من يكون لا ولد لـه ولا والد وعبئا على غيره وهو الضعيف.

(٣) يقرى: أى يكرم.

(٤) صحيح البخارى.

(٥) من الرحيق المختوم (دار إحياء التراث) ص ٥٦.

-٢٠-

حياة التأمل قبل البعثة

كان الحبيب دائم التأمل والتفكير في كل شيء حوله ودائما ما يرفع بصره إلى السماء ويقول في نفسه: لابد لهذا الكون من إله واحد، وقد حبب إليه الله الخلاء والعزلة والتأمل وأعده الله تعالى للنبوة وكان كل أهله وعشيرته ومكة وما حولها يحبونه ويلقبونه بالصادق الأمين، إنها تربية الله الذى أحسن تربيته ويعده الله للنبوة والرسالة، وظل يصعد الجبل إلى أن هداه الله إلى غار حراء الذى يبعد عن مكة وعن البيت الحرام ببضعة كيلو مترات قليلة وكان الجبل هواؤه نقى ويعطى فرصة أكثر للتأمل وللخلوة التى ينشدها ثم أنه من فوق الغار يستطيع أن يرى الكعبة المشرفة.

* * *

-٢١-

التأهيل للبعثة

كان الحبيب ﷺ كما ذكرنا يحب الوحدة والخلوة ويذهب إلى الغار يتأمل وهو راضى عن نفسه وعن حياته وكانت الرؤيا الصادقة أول ما بدئ به رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: فذكر الزهرى عن عروة بن الزبير، عن عائشة رضى الله عنها. أنها حدثته: أن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من النبوة، حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به: الرؤيا الصادقة، لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا فى نومه إلا جاءت كفلق الصبح قالت: وحبب الله تعالى إليه الخلوة فلم يكن شىء أحب إليه من أن يخلو وحده (١).

سلام الحجر والشجر على رسول الله ﷺ قال ابن إسحاق: وحدثنى عبد الملك بن عبيد الله بن أبى سفيان بن العلاء بن جارية الثقفى، وكان واعية، عن بعض أهل العلم.

أن رسول الله ﷺ حين أراده الله بكرامته، وابتدأه بالنبوة، كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت ويفضى إلى شعاب مكة وبطون أوديتها فلا يمر رسول الله ﷺ بحجر ولا شجر، إلا

---

(١) سيرة ابن هشام (تحقيق د / السرجانى) ص ٢٣٤ جـ١.

قـال: السـلام عليـك يـا رسـول الله، قـال: فيلتفـت رسـول الله ﷺ حولـه، وعـن يمينـه وشـماله وخلفـه فـلا يـرى إلا الشـجر والحجـارة فمكـث رسـول الله ﷺ كـذلك يـرى ويسـمع، ومـا شـاء الله أن يمكـث، ثـم جـاء جبريـل عليـه السـلام بمـا جـاءه مـن كرامـة الله، وهـو بحـراء فى شهر رمضان(١).

وقـد شـرح ابـن هشـام معنـى مـا سـبق وكـان ملخصـه فـى الهـامش (الحاشـية): أن الله تعـالى أنطـق الحجـر والشـجر وهـو قـادر علـى كـل شـىء وأنـه قـد يحتمـل تسـليم الحجـارة أن يكـون مضـافا فـى الحقيقـة إلى ملائكة يسكنون تلك الأماكن ويعمرونها.

* * *

---

(١) سيرة ابن هشام (تحقيق د / السرجانى) ص ٢٣٥ جـ ١.

-٢٢-

الرسالة ومبعث الحبيب ﷺ

كان الحبيب محمد صلوات الله وسلامه عليه يستمتع بحياة التأمل حيث يقيم شهرا فى كل عام فى غار حراء يتعبد لمن خلق الكون.

لقد أتم الحبيب ﷺ أربعين عاما ولم يفعل سوءا أو منكرا فى حياته وكان صادقا أمينا يعطف على المسكين ويساعد الضعيف ويكرم الضيف ويعين ذا الحاجة على حاجته، وكان كل أهل مكة يحبونه لما فيه من حسن الخلق وشرفه ونسبه وصدقه وأمانته.

وكان من عادة العرب (أهل مكة) التحنث أو التحنف، والتحنث: هو التبرر والمجاورة (أى الاعتكاف).

قال ابن إسحاق: حدثنى وهب بن كيسان قال: قال عبيد: فكان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر من كل سنة، يطعم من جاء من المساكين فإذا قضى رسول الله ﷺ جواره، من شهره ذلك، كان أول من يبدأ به - إذا انصرف من جواره - الكعبة قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعا، أو ماشاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته [(١)].

---

(١) سيرة ابن هشام (تحقيق د / السرجانى) ص ٢٣٦ جـ ١.

حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته من السنة التى بعثه الله تعالى فيها، وذلك الشهر شهر رمضان: خرج رسول الله ﷺ إلى حراء، كما كان يخرج لجواره ومعه أهله، حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته رحم العباد بها، وجاءه جبريل - عليه السلام - بأمر الله تعالى [١] .

حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث عن عقيل، عن ابن شهاب، عن عروة ابن الزبير، عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: أول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه، وهو التعبد الليالى ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال: "اقرأ. فقال: ما أنا بقارئ "، قال: " فأخذنى فغطنى [٢] حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: اقرأ، فقلت ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: اقرأ، فقلت ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثالثة. ثم أرسلنى فقال:

---

(١) سيرة ابن هشام (تحقيق د / السرجانى) جـ ١.

(٢) غطنى: ضمنى بقوة واحتوانى.

{اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: ١-٥].

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال: **«زملونى زملونى»** (١) فزملوه حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة. وأخبرها الخبر. " لقد خشيت على نفسى " فقالت خديجة: كلا والله ما يحزنك الله أبدا: إنك لتصل الرحم وتحمل الكل(٢) وتكسب المعدوم وتقرى الضيف (٣) وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة ابن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة، وكان امرأ تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخا كبيرا قد عمى، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة: يا ابن أخى ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى فقال له ورقة: هذا الناموس الذى نزل على موسى يا ليتنى فيها جذعا(٤) ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ :

---

(١) زملونى: غطونى.

(٢) الكل: من يكون لا ولد له ولا والد (الضعيف).

(٣) يقرى الضيف: أى يكرمه.

(٤) جذعا: الجذع الصغير يطلق على صغير إليها ثم ويقصد هنا يا ليتنى كنت شابا صغيرا.

«أو مخرجى هم؟» قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى. قال ابن شهاب: وأخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصارى قال وهو يحدث عن فترة الوحى فقال فى حديثه: بينما أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت: زملونى فأنزل الله تعالى:

{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} [المدثر ١ - ٥]. فحمى الوحي وتتابع[١].

* * *

(١) صحيح البخارى: الجزء الأول. ص ٥.

-٢٣-

الوحى

بدأ الوحى ينزل على الحبيب محمد ﷺ ويتلقاه فرحا مسرورا وكان لا يحزن إلا إذا فتر الوحى وانقطع فكان يحزن حزنا شديدا.

ويقول فضيلة الشيخ صفى الرحمن المباركفورى فى كتابه الرحيق المختوم عن أقسام الوحى:

أولها: الرؤية الصادقة وكانت مبدأ وحيه ﷺ.

ثانيها: ما كان يلقيه الملك فى روعه وقلبه من غير أن يراه ﷺ.

ثالثها: أن جبريل كان يتمثل للحبيب ﷺ رجلا فيخاطبه حتى يعى عنه ما يقول.

رابعها: أنه كان يأتيه فى مثل صلصلة الجرس وكان أشده عليه فليتبس به الملك.

خامسها: أنه ﷺ يرى الملك فى صورته التى خُلق عليها فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحيه وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله تعالى ذلك فى سورة النجم. قال تعالى:

{وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ المُنتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ المَأْوَى} [النجم ١- ١٥].

سادسها: ما أوحاه الله إليه وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها.

سابعها: كلام الله له ﷺ بلا واسطة من الملائكة كما كلم نبى الله موسى ابن عمران عليه السلام [١].

* * *

(١) ملخص من الرحيق المختوم: (تحقيق أبو عبد الله سيد توفيق) ص ٦١.

-٢٤-

المعجزة

لقد كان ولا يزال القرآن الكريم هو المعجزة التى نزل بها الأمين جبريل على قلب محمد بن عبد الله ﷺ النبى الأمى الذى لا يعرف القراءة ولا الكتابة فأين له من هذا الكلام؟ أنه من عند الله ليكون الأمى ﷺ معلما لكل البشر وهاديا ومبشرا ونذيرا وكيف يكون ذلك لأمى؟

القرآن الكريم والنور المبين الذى مازال يكتشف منه العلماء الكثير والكثير.

* * *

-٢٥-

قالوا عن محمد ﷺ

يقول الكاتب الإنجليزى الكبير (لوبل توماس) قبل أن يكتشف (كريستوفر كولومبس) أمريكا بألف سنة: أبصرت عينا قريش محمد بن عبد الله ﷺالنور فى مكة - فكأن الله اختار هذا الطفل ليقلب تاريخ العالم - وسرعان ما شعر بأن قومه الذين يعبدون الأوثان كانوا على ضلال يتمسكون بدين منبعث من الأوهام والأساطير، فبُعث بدين متسامح، رضى أن يقبله كل إنسان بدون مشقة، وقد علم أصحابه حب آدم وإبراهيم وموسى وعيسى واعتبارهم أنبياء مرسلين، ولكن هؤلاء لا يُعتبرون بمنزلة محمد، بل هم أقل منه بدرجات لأن محمدا ﷺ هو خاتم الأنبياء والرسل، ودينه دين الله العام على عالم البشرية كله، ولهذا لا توجد أسرة فى الجزيرة العربية لا تسمى أحد أبنائها باسم محمد، وينتشر اسم محمد فى العالم أكثر من انتشار بطرس ويوحنا[١].

ويقول (وينس سور) الأستاذ بجامعة لندن فى أول كتابه (تاريخ الأديان) ما نصه:

---

(١) من محمد رسول الإسلام (محمد فهمى عبد الوهاب) ص ١٤.

إن محمدًا رسول الإسلام ﷺ يكاد يكون هو الوحيد الذى نعرفه عن طريق التاريخ من بين عظماء مؤسسى الأديان، إذ أن الخرافات لم تستطع أن تخفيه، وأن دين مواطنيه أبان ظهوره قد هوى إلى أدنى الدركات [١].

وتقول (مدام بيرون) رئيسة الدفاع عن حقوق المرأة فى باريس ما نصه:

إن محمدا لم يكن عدوا للمرأة كما يظهر من أقوال بعض الناس - تريد الأوربيون - الذين أساؤوا فهم روح التشريع الذى جاء به، فينبغى أن نتصور الزمان الذى عاش فيه لنعرف قيمة إصلاحاته[٢].

يقول (وليم موير) المؤرخ الإنجليزى الكبير فى كتابه حياة محمد تحت عنوان: محمد الرحمة المهداة ما نصه:

لقد امتاز محمد عليه السلام بوضوح كلامه ويسر دينه، وقد أتم من الأعمال ما يدهش العقول، ولم يعهد التاريخ مصلحا أيقظ النفوس وأحيا الأخلاق ورفع شأن الفضيلة فى زمن قصير كما فعل نبى الإسلام محمد.

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٣٤.

(٢) نفس المصدر السابق ص ٤٤.

ويستطرد قائلا: إن حياة محمد التاريخية لا يمكن أن توصف بأحسن مما وصفه الله نفسه بألفاظ قليلة بين فيها صفة النبى عليه السلام حيث قال:

{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}. إن يتيم آمنة (الأم) العظيم قد برهن بنفسه على أنه أعظم الرحمات لكل ضعيف ولكل محتاج إلى المساعدة(١).

يقول (برناردشو) المؤرخ العالمى والروائى الأشهر ما نصه:

إن أوربا الآن ابتدأت تحس بحكمة محمد وبدأت تعشق دينه، كما أنها ستبرئ العقيدة الإسلامية مما اتهمتها بها من أراجيف رجال أوربا فى العصور الوسطى، وسيكون دين محمد هو النظام الذى تُؤسس عليه دعائم السلام والسعادة، وتستمد من فلسفته حل المعضلات وفك المشكلات وحل العقد.

وإن كثيرين من مواطنى ومن الأوربيين الآخرين يقدسون تعاليم الإسلام، ولذلك يمكننى أن أؤكد نبوءتى فأقول: إن بوادر العصر الإسلامى الأوروبى قريبة لا محالة.

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٤٥ - ملخص لما نشر.

وإنـى أعتقـد أن رجـلا كمحمـد لـو تسـلم زمـام الحكـم المطلـق فـى العــالم بأجمعــه اليــوم لــتم لـــه النجــاح فــى حكمــه، ولقــاد العــالم إلـــى الخيــر وحــل مشــاكله علــى وجــه يحقــق للعــالم كلــه الســلام والســعادة المنشودة...

.. أجـل.. مـا أحـوج العـالم اليـوم إلـى رجـل كمحمـد ليحـل قضـاياه المعقدة بينما هو يتناول فنجان من القهوة (١).

ممـــا ســـبق أمثلـــة مـــن شـــهادة مـــن لا يـــدينون بالإســـلام ولكـــن يقـدرون محمـد ﷺ ويعرفـون قـدره وهـى أمثلـة فقـط ولـيس كـل مـا قيـل عـن الحبيـب ﷺ ولـو جمعنـا مـا قيـل عنـه ﷺ لمـا كفـى مجلـدا واثنـــين وثلاثـــة وهـــذا مـــا شـــهد بـــه الأعـــداء. فمـــا بالـــك بأهـــل التقـــى وسوف نختار بعضا من أبيات بردة المديح للإمام البوصيرى:

محمـــد ســـيد الكـــونين والثقليـــ ::: والفـــريقين مـــن عـــرب ومـــن عجـــم

نبينـــا الآمـــر النـــاهى فـــلا أحـــد ::: أبـــر فـــى قـــول لا منـــه ولا نعـــم

هـو الحبيـب الـذى ترجى شفاعته ::: لكـل هـول مـن الأهـوال مقـتحم

دعـا إلـى الله فالمستمسـكون بـه ::: مستمسـكون بحبـل غيـر منفصـم

فـاق النّبيـينَ فـى خَلـق وفـى خلـق ::: ولـم يـدانوه فـى علـم ولا كـرم

وكلهـم مـن رسـول الله ملـتمس ::: غرفـا من البحر أو رشـفا من الـديم

وواقفـون لديـه عنـد حـدهم ::: مـن نقطـة العلـم أو مـن شـكلة

فهـو الـذى تـم معنـاه وصـورته ::: الحكـم ثـم اصـطفاه حبيبـا بـارئ

منـزه عـن شـريك فـى محاسـنه ::: النسـم فجـوهر الحسـن فيـه غيـر

---

(١) نفس المصدر السابق: ص ٦١.

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم ::: منقسم واحكم بما شئت مدحا
وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف ::: فيه واحتكم وانسب إلى قدره ما
فإن فضل رسول الله ليس له ::: شئت من عظم حد فيعرب عنه
لو ناسبت قدره آياته عظما ::: ناطق بفم أحيا اسمه حين يدعى
لم يمتحنا بما تعيا العقول به ::: دارس الرمم حرصا علينا فلم
أعيا الورى فهم معناه فليس يرى ::: نرتب ولم نهم للقرب والبعد فيه
كالشمس تظهر للعينين من بعد ::: غير منفحم صغيرة وتكل
وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته ::: الطرف من أمم قوم نيام تسلوا
فمبلغ العلم فيه أنه بشر ::: عنه بالحلم وأنه خير خلق الله
وكل آى أتى الرسل الكرام بها ::: كلهم فإنما اتصلت من نوره
فإنه شمس فضل هم كواكبها ::: بهم يظهرن أنوارها للناس فى
أكرم بخلق نبى زانه خلق ::: الظلم بالحسن مشتمل بالبشر
كالزهر فى ترف والبدر فى شرف ::: متسم والبحر فى كرم والدهر
كأنه وهو فرد من جلالته ::: فى همم فى عسكر حين تلقاه
كأنما اللؤلؤ المكنون فى ::: وفى حشم من معدنى منطق منه
صدف ::: ومبتسم طوبى لمتشق منه
لا طيب يعدل تربا ضم أعظمه وملتثم

* * *

-٢٦-

الدعوة

بعد نزول القرآن على الحبيب محمد ﷺ فى رمضان كما أشار رب العزة فى قوله تعالى:

{شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} [البقرة: ١٨٥].

{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [القدر: ١].

فقد أنزل الله سبحانه وتعالى قرآنا كريما على رسول كريم وأمره الله بالدعوة وأنزل أمره فى القرآن الكريم إذ قال تعالى:

{فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [الحجر: ٩٤].

{وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ} [الشعراء: ٢١٤ - ٢١٦].

{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ} [المدثر ١ - ٣].

بدأ الحبيب المصطفى ﷺ دعوته سرا لأهله وأقرب الأقربين وكانت أقرب الأقربين زوجته السيدة خديجة بنت خويلد (رضى الله عنها) التى تعرف كل شئ من أول ما قص عليها الحبيب ﷺ نزول الأمين جبريل أول مرة فآزرته ووقفت بجواره وآمنت به

وصـدقته بمـا جـاء بـه مـن عنـد الله وهكـذا تكـون السـيدة خديجـة أول من آمن بالرسول الكريم ﷺ وبدعوته.

قـال ابـن إسـحاق: ثـم كـان أول ذكـر مـن النـاس آمـن برسـول الله ﷺ، وصـلى معـه وصـدق بمـا جـاءه مـن الله تعـالى: علـى بـن أبـى طالـب بـن عبـد المطلـب بـن هاشـم، رضـوان الله عليـه، وهـو يومئـذ ابن عشر سنين [١].

وقـال ابـن إسـحاق: ثـم أسـلم زيـد بـن حارثـة بـن شـرحبيل بـن كعـب، مـولى رسـول الله ﷺ وكـان أول ذكـر أسـلم، وصـلى بعـد علـى بن أبى طالب [٢].

وكـان زيـد مـن الشـام وأتـى ضـمن رقيـق جلبـه حكـيم بـن حـزام بـن خويلـد وقـال لعمتـه خديجـة اختـارى يـا عمـة أى هـؤلاء الغلمـان شـئت فهـو لـك، فاختـارت زيـدا وكـان عمـره ثمـانى سـنوات فـرآه الحبيـب ﷺ عنـد السـيد خديجـة فاسـتوهبه منهـا (أى طلبـه منهـا هبـة)، فوهبتـه لـه، فأعتقـه رسـول الله ﷺ وتبنـاه، وذلـك قبـل أن يُـوحى إليـه ﷺ [٣]

---

(١) سيرة ابن هشام (تحقيق د / السرجانى) ص ٢٤٥، جـ١.

(٢) نفس المصدر السابق: ص ٢٤، جـ ١.

(٣) نفس المصدر السابق: ص ٢٤٨ جـ ١ - ملخص النص.

وقال ابن إسحاق: ثم أسلم أبو بكر بن أبى قحافة، واسمه عتيق، واسم أبى قحافة عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر [١].

قال ابن هشام: اسمه أبا بكر: عبد الله، عتيق: لقب لحسن وجهه وعتقه[٢].

قال ابن إسحاق: فلما أسلم أبو بكر رضي الله عنه: أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله [٣].

وكان أبو بكر نشيطا فى دعوته، وكونه تاجرا فالكل يحبه لصدقه وحسن معاملته وكرمه مع أصدقاءه، فأسلم على يديه الكثير من كبار الصحابة منهم عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، وطلحة بين عبيد الله.

قال ابن إسحاق: فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس بالإسلام فصلوا وصدقوا رسول الله ﷺ بما جاءه من الله [٤].

---

(١) سيرة ابن هشام (تحقيق د / السرجانى) ص ٢٤٨، جـ١.

(٢) نفس المصدر السابق: ص ٢٤٩.

(٣) نفس المصدر السابق: ص ٢٤٩.

(٤) سيرة ابن هشام (تحقيق د / السرجانى) ص ٢٥٠، جـ ١.

ثم أسلم بعد ذلك: أبو عبيد بن الجراح، أبى سلمة واسمه (عبد الله بن عبد الأسد)، الأرقم بن أبى الأرقم، عثمان بن مظعون وأخوه، عبيدة بن الحارث، سعيد بن زيد وامرأته، وأسماء وعائشة ابنتى أبو بكر الصديق، خباب بن الأرت (وهو من بنى تميم)، عمير بن أبى وقاص (شقيق سعد بن أبى وقاص)، عبد الله بن مسعود، ومسعود بن القارى (واسمه مسعود بن ربيعة)، سليط بن عمرو، أخوه حاطب بن عمرو، عياش بن أبى ربيعة بن المغيرة، وامرأته أسماء بنت سلامة بن مخربة التميمية، وخنيس بن حذافة، عامر بن أبى ربيعة، ابنى جحش (عبد الله وأحمد)، جعفر بن أبى طالب، وامرأته فاطمة بنت المجل، نعيم والنحام، وعامر بن فهيرة (مولى أبو بكر)، خالد بن سعيد ونسبه وإسلام امرأته، وأبو حنيفة (واسمه مهشم)، واقد بن عبد الله، بنى البكير (خالد وعامر وعاقل وإياس)، عمار بن ياسر، صهيب ابن سنان (ويقال أنه رومى فقال بعض من ذكر أنه من النمر بن قاسط، إنما كان أسيرا فى أرض الروم فاشترى منهم وجاء فى الحديث عن النبى ﷺ : **«صهيب سابق الروم»** [(١)].

---

(١) سيرة ابن هشام (تحقيق د / السرجانى) ملخص جـ ١، ص ٢٤٩.

وقد ورد فى الأثر: أن أول من أسلم من العبيد هو بلال بن رباح.

وبعـد ذلـك دخـل كثيـر مـن النـاس فـى الإسـلام رجـالا ونسـاءً وشيوخا وغلمانا وبدأ الإسلام يتفشى فى مكة.

* * *

-٢-

الدعوة جهرا

وجاء أمر الله إلى رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه بالدعوة بعد أن تستتر بالدعوة مدة ثلاث سنوات من نزول الوحى.

وكان أمر الله له ﷺ قرآنا إذ قال تعالى:

{وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى العَزِيزِ الرَّحِيمِ} [الشعراء ٢١٤ - ٢١].

{فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ المُشْرِكِينَ} [الحجر: ٩٤].

قال ابن إسحاق: ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالا من الرجال والنساء، حتى فشى الإسلام بمكة وتحدث به ثم إن الله عز وجل أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه، وأن يبادى الناس بأمره، وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفض رسول الله أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين - فيما بلغنى - من مبعثه، ثم قال الله تعالى له:

{فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ المُشْرِكِينَ} [الحجر: ٩٤].

{وَأَنـذِرْ عَشِـيرَتَكَ الأَقْـرَبِينَ * وَاخْفِـضْ جَنَاحَـكَ لِمَـنِ اتَّبَعَـكَ مِـنَ الْمُؤْمِنِينَ}[الشعراء: ٢١٤، ٢١٥].

{وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ} [الشعراء: ٨٩] (١).

وبـدأ الحبيـب ﷺ ينشـر دعوتـه جهـرا، قيـل أن رسـول الله ﷺ صـعد جبـل الصـفا بمكـة، فهتـف: يـا صـاحباه، يـا بنـى عبـد المطلـب، يـا بنـى عبـد منـاف، حتـى ذكـر الأقـرب فـالأقرب مـن قبائـل قـريش، فاجتمعوا إليه، وقالوا لـه: مالك؟

قـال ﷺ: «**أرأيـتكم لـو أخبـرتكم أن خـيلا تخـرج مـن سـفح هـذا الجبـل، أما كنتم تصدقونى؟**».

قالوا: بلى، ما جربنا عليك كذبا.

قال ﷺ: «**فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد**».

فقال أبو لهب: تبا لك، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله تعالى:

{تَبَّـتْ يَـدَا أَبِـي لَهَـبٍ وَتَـبَّ * مَـا أَغْنَـى عَنْـهُ مَالُـهُ وَمَـا كَسَـبَ * سَيَصْـلَى نَـاراً ذَاتَ لَهَـبٍ * وَامْرَأَتُـهُ حَمَّالَـةَ الحَطَـبِ * فِـي جِيـدِهَا حَبْـلٌ مِّن مَّسَدٍ}[سورة المسد].

---

(١) سيرة ابن هشام (تحقيقد/ السرجانى) ص ٢٥٥ جـ١.

ثـم اسـتمر الحبيـب ﷺ يـدعو إلــى الله تعـالى لـيلا ونهـارا، وسـرا وجهـرا لا يصـرفه عـن ذلـك صـارف، ولا يـرده راد، ويتبـع النـاس فـى أنـديتهم ومجـامعهم ومحـافلهم، وفـى المواسـم ومواقـف الحـج، ويـدعو كـل مـن لقيـه إلـى الحـق، مـن حـر وعبـد، وقـوى وضـعيف وغنى وفقير، وقريب وبعيد. جميع الخلق فى ذلك عنده سواه [١].

* * *

---

(١) عظمة الرسول: (أ. محمد عطية الإبراشى).

-٢٨-

عداوة الكفار وإيذائهم للحبيب ﷺ

سارت دعوة المصطفى ﷺ فى طريقها يتحمل من أجلها المشقة والهوان ولا يبالى، واتهموه بالعته والجنون والكفر بآلهتهم وأساؤوا إليه وحاربوه بكل ما فى وسعهم ولكن الله كان يمنحه القوة والصبر على إيذائهم وغطرستهم وعندما جحدوه أنزل الله تعالى قرآنا ليهدئ من روع الحبيب. قال تعالى:

{قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} [الأنعام: ٣٣].

ولكن الحبيب ﷺ يتحمل كل شئ فى سبيل دعوته، وخاب أمل المشركين فعذبوا من أسلم من العبيد ومن مواليهم ومن غلمانهم وجواريهم ومن أهلهم واعتبروا كل من يدخل فى دين محمد يكون كافر بآلهتهم، ثم ظل الإسلام ينتشر يوما بعد يوم والكافرون يحاربون الدعوة.

ولما دعا رسول الله ﷺ قومه للإسلام وصدع به كما أمره الله، عاداه قومه وأنكروه إلا من هداه الله للإيمان والإسلام وأجمعوا على حربه وما منعهم من حربه إلا خشية غضب عمه

أبو طالب لأنه يخاف عليه ويحنو عليه وهو حدب[١] عليه فأجمعوا على أن يبعثوا له وفدا من قريش منهم عتبة وشيبة ابنى أبى ربيعة وأبو سفيان بن حرب (واسمه صخر) وأبو البخترى (واسمه العاصى بن هشام) والأسود بن المطلب، وأبو جهل واسمه عمرو بن هشام (وكان يكنى بأبى الحكم)، وابنى المغيرة هشام والوليد ونبيه ومنبه ابنى الحجاج والعاص بن وائل [٢].

التقى الوفد القرشى بأبا طالب ليعاتبوه على فعل محمد ﷺ ابن أخيه.

قال ابن إسحاق: أو من مشى منهم (الوفد).

فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا [٣]، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه، فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا، وردهم ردا جميلا، فانصرفوا عنه.

ظل الحبيب ﷺ ينشر دعوته جهارا ويزداد عدد المسلمين ومعه يزداد حقد المشركين ويزداد إيذائهم له وللمسلمين وعقدوا النية على أن يقوم وفد آخر أو الوفد نفسه لملاقاة أبى طالب للحد

---

(١) أى احتضنه وحنا عليه.

(٢) ملخص من ابن هشام: (تحقيق د / السرجانى) ص ٢٥٦، جـ١.

(٣) عقولنا.

من ما يفعله محمد ﷺ ووصل الوفد الوثنى إلى أبى طالب وقالوا له: يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وقد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك، فلم تنهه عنا.

وإنا والله لا نصبر على هذا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك فى ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين، وانصرفوا. ظل أبو طالب يفكر فيما يفعل فهذا ابن أخيه وهؤلاء قومه وأهله وفيهم نسبه وشرفه وهو لا يقدر على عداء كل قريش بالإضافة إلى أن أبا طالب يكره ما جاء به محمد صلوات الله وسلامه عليه فأرسل إليه...

قال ابن إسحاق: وحدثنى يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حدث أن قريشا حين قالوا لأبى طالب هذه المقالة، بعث إلى رسول الله ﷺ، فقال له: يا ابن أخى، إن قومك قد جاؤونى، فقالوا لى كذا وكذا للذى كانوا قالوا له، فأبق علىّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق، قال: فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء أنه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه.

قال: فقال رسول الله ﷺ: **«يا عم، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته».**

قال: ثم استعبر رسول الله ﷺ، فبكى ثم قام: فلما ولى ناداه أبو طالب، فقال: أقبل يا ابن أخى، قال: فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: اذهب يا ابن أخى، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشىء أبدا [١].

زاد عناد المشركين وكفرهم وفكروا فى حيلة أخرى وعقودا النية على مساومة أبا طالب مرة ثانية.

قال محمد بن إسحاق: ثم إن قريشا أتوا أبا طالب فقالوا: يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد [٢] أنهد فتى فى قريش وأجملهم فخذه فلك عقله ونصرته واتخذه ولدا فهو لك، وسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آباءك نقتله فإنما رجل برجل، فقال: بئس والله ما تسوموننى أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبدا. فقال المطعم ابن عدى بن نوفل بن عبد مناف: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم

---

(١) سيرة ابن هشام (تحقيق د / السرجانى)، ص ٢٥٨، جـ ١.

(٢) عمارة شقيق خالد بن الوليد.

شـيئا، فقـال: والله مـا أنصـفونى لكنـك قـد أجمعـت خـذلانى ومظـاهرة القـوم علـىّ فاصـنع مـا بـدا لـك، فحقـب [١] الأمـر، وحميـت الحـرب، وتنابذ القوم [٢].

ولـم يكتنفـوا بكـل مـا فعلـوه وكـل يـوم يزيـدوا مـن إيـذائهم للحبيـب ﷺ وصـحبه ويـروى فيمـا يـروى: أن أبـا جهـل (واسـمه عمـرو بـن هشـام وكـان القرشـيين يلقبونــه أبـا الحكـم وقـال عنــه رسـول الله ﷺ : «**إنه أبا جهل**» قـام خطيبـا فـى قومـه: يـا معشـر قـريش إن محمـدا قـد أبـى إلا مـا تـرون مـن عيـب ديننـا وشـتم آباءنـا وتسـفيه أحلامنـا وسـب آلهتنـا، وإنــى أعاهـد الله لأجلـس لــه غـدا بحجـر فـإذا سـجد فضـخت [٣] بـه رأسـه فليصـنع بعـد ذلـك بنـو عبـد منـاف مـا بـدا لهـم فلمـا أصـبح أبــو جهــل أخــذ حجــرا وجلــس وأتــى النبــى ﷺ فقــام يصــلى بــين الــركنين الأســود واليمــانى، وكــان يصــلى إلــى الشــام أى اتجاهــه وجلسـت قـريش فـى أنـديتها ينظـرون، فلمـا سـجد النبـى ﷺ احتمـل أبـو جهـل الحجـر ثـم أقبـل نحـوه حتـى إذا دنـا منـه رجـع مرعوبـا منتقعـا لونـه! قـد يبسـت يـداه علـى الحجـر حتـى قـذف بـه مـن يـده، فقامـت إليـه رجـال قـريش فقـالوا: مالـك يـا أبـا الحكـم؟ فقـال: قمـت إليـه

---

(١) أى اشتد وعسر.
(٢) تاريخ الإسلام للذهبى.
(٣) شججت به رأسه.

لأفعل ما قلت لكم فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الإبل والله ما رأيت مثل هامته ولا قصرته [(١)] ولا أنيابه لفحل قط فهم أن يأكلنى. قال ابن إسحاق: فذكر لى أن رسول الله ﷺ قال: «**ذاك جبريل عليه السلام لو دنا منى لأخذه**» [(٢)].

أى عناد وغطرسة هذه الذى يلقاه الحبيب ﷺ وصحبه من المشركين، إنهم قلوب مغلقة كتب الله عليهم الكفر ولكن منهم من سمع القرآن وشهد له!.

يقول البيهقى: أنا الحاكم أنا محمد بن على الصنعانى بمكة أنا إسحاق بن إبراهيم أنا عبد الرازق بن معمر عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا. قال: لم؟ قال: ليعطوك فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله، قال قد علمت أنى من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر لها أو أنك كاره له، قال: وماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار منى ولا أعلم برجزه ولا بقصيده منى ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذى يقول شيئا من هذا، والله إن لقوله الذى يقول حلاوة، وإن عليه

---

(١) عنقه.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبى، ص ٨٨، جـ٢.

لطـلاوة، وإنــه لمثمــر أعــلاه مغـدق أسـفله، وإنــه ليعلـو ومـا يُعلــى عليـه، وإنـه لـيحطم مـا تحتـه، قـال: لا يرضـى عنـك قومـك حتـى تقـول فيـه، قـال فـدعنى حتـى أفكـر فيـه فلمـا قـال: هـذا سـحر يـؤثر بـأثره عـن غيره، فنزلت الآيات:

{ذَرْنِـي وَمَــنْ خَلَقْــتُ وَحِيـداً * وَجَعَلْــتُ لَـهُ مَــالاً مَّمْـدوداً * وَبَنِــينَ شُـهُوداً * وَمَهَّـدتُّ لَـهُ تَمْهِيـداً * ثُـمَّ يَطْمَـعُ أَنْ أَزِيـدَ * كَـلاَّ إِنَّـهُ كَـانَ لآيَاتِنَـا عَنِيـداً * سَـأُرْهِقُهُ صَـعُوداً * إِنَّـهُ فَكَّـرَ وَقَـدَّرَ * فَقُتِـلَ كَيْـفَ قَـدَّرَ * ثُـمَّ قُتِـلَ كَيْـفَ قَـدَّرَ * ثُـمَّ نَظَـرَ * ثُـمَّ عَـبَسَ وَبَسَـرَ * ثُـمَّ أَدْبَـرَ وَاسْـتَكْبَرَ * فَقَـالَ إِنْ هَــذَا إِلاَّ سِــحْرٌ يُــؤْثَرُ * إِنْ هَــذَا إِلاَّ قَــوْلُ البَشَــرِ * سَأُصْــلِيهِ سَــقَرَ} [المدثر ١١ - ٢٦].

هــذه نمــاذج بسـيطة مــن الإيــذاء الــذى تعــرض لـــه الحبيــب المصـــطفى صـــلوات الله وســـلامه عليـــه. وقــد رمـــاه أهلـــه بالســـفه والجنـون ومـا فعلـه بـه عمـه أبـو لهـب إذ كـان لا يلقـاه فـى مجلـس إلا سـخر منـه وكذبـه أمـام النـاس حتـى أنـه عنـدما مـات (عبـد الله) ابـن الحبيــب ﷺ استبشــر أبــو لهــب وجــرى مســرعا إلـــى أهلـــه ورفاقـــه وعشيرته يبشرهم بأن محمدا صار أبتر [١] ونزلت الآيات:

---

(١) أى لا ولد لـه وقُطع.

{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ} [الكوثر].

أى يا محمد إن مخاصمك هو الأبتر وهو المقطوع. إنه أبو لهب لعنة الله عليه، وكان يسير وراء الحبيب فى موسم الحج والأسواق ليكذبه كما كانت زوجته أم جميل واسمها (أروى بنت حرب ابن أمية أخت أبى سفيان) أشد عداوة لرسول الله ﷺ من أبو لهب، وكانت تهجو رسول الله ﷺ قطع الله لسانها:

مذمما عيصنا... وأمره أبينا... ودينه قلينا

وقد شملت السورة الكريمة (سورة المسد كلاهما) قال تعالى:

{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ} [سورة المسد].

حبل من نار والعياذ بالله. وكثير من الكفار أذى رسول الله ﷺ وآذوا كثيرا من الصحابة والأتباع ومنهم الصديق سيدنا أبو بكر ولعل أشهر من عُذب وصبر عمار بن ياسر رضي الله عنه وجاء فى الأثر.

وكان عمار بن ياسر رضي الله عنه مولى لبنى مخزوم، أسلم هو وأبوه وأمه فكان المشركون وعلى رأسهم أبو جهل يخرجونهم إلى

الأبطح إذا حميت الرمضاء[١]، فيعذبونهم بحرها. ومر بهم النبى ﷺ وهم يُعذبون فقال: **«صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة»**، فمات ياسر فى العذاب، وطعن (أبو جهل) (سمية) - أم عمار - فى قلبها بحربة فماتت وهى أول شهيدة فى الإسلام، وشددوا العذاب على عمار بالحر تارة وبوضع الصخر أحمر على صدره أخرى، وبالتغريق أخرى، وقالوا: لا نتركك حتى تسب محمدا، أو تقول فى اللات والعزى خيرا، فوافقهم على ذلك مكرها، وجاء باكيا معتذرا إلى النبى ﷺ فأنزل الله فيه قرآنا [٢]:

{مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [النحل ٦ - ١٠].

* * *

---

(١) الصحراء.

(٢) الرحيق المختوم: (تحقيق أبو عبد الله سيد توفيق) ص ٩.

-٢٩-

إسلام حمزة رضي الله عنه

حمـزة بـن عبـد المطلـب بـن هاشـم بـن عبـد منـاف عـم الحبيـب محمـد ﷺ وكـان علـى ديـن آبـاءه، وذات يـوم عائـدا مـن الصـيد فكـان رضي الله عنه صـيادا مـاهرا يجيـد القـنص والصـيد، وذهـب إلـى بيتـه بعـد الطـواف بالكعبـة المشـرفة؛ وكانـت مـن عـادة العـرب الطـواف بالكعبـة فـى كـل الأمـور، فحدثتـه زوجتـه علـى مـا كـان مـن أبـى جهـل، قالـت: كـان ابـن أخيـك محمـد ﷺ عنـد جبـل الصـفا فمـر بـه أبـو جهـل وسـبه وشـتمه وأذاه ونـال منـه مـا يكـره وحقـر دينـه وسـبه، ولـم يرد عليه محمد ﷺ.

فغضـب أبـو عمـارة (حمـزة) كـل الغضـب، وكـان حمـزة شـابا يافعـا سـيدا فـى قومـه عزيـزا شـريفا وصـمم علـى أن يأخـذ حـق ابـن أخيـه مـن هـذا الجاهـل أبـا الجهـل فخـرج يبحـث عنـه حتـى لاقـاه وضـربه بـالقوس فـى رأسـه حتـى شـجها وقـال لـه: أتشـتم ابـن أخـى وتسبه و أنـا علـى دينـه أتشـتمه وأنـا أقـول مـا يقـول؟ إن اسـتطعت رد علـىّ! فقـام رجـال مـن أهـل مخـزوم ينصـرون أبـا جهـل، فقـال لهـم: دعـوا حمـزة فـإنى والله سـببت ابـن أخيـه سـبا قبيحـا، وفـتح الله علـى حمـزة بـن عبـد المطلـب بنـور الحـق والإسـلام وأعلـن إسـلامه

وعرفت قريش كلها بإسلام حمزة الذى كان عونا لابن أخيه وأنه سوف يمنع كل قريش عنه.

بعد إسلام حمزة أحس القرشيون أن محمداً ﷺ زادت عصبيته ومن ينصرونه ففكروا فى أن يفاوضوه مرة أخرى فأجمعوا على عتبة بن ربيعة ليفاوض رسول الله ﷺ وكان سيدا فى قومه مهابا مطاعا، فذهب عتبة وجلس بين يدى رسول الله ﷺ وقال له: يا ابن أخى إنك منا شريفا فى قومك وقد أتيتنا بأمر عظيم فرقت به الأهل وسفهت أحلام قومك وعبت دينهم وآلهتهم وكفرت بكل آلهتنا وجئت أعرض عليك أمرا، فقال الحبيب ﷺ : **«قل يا أبا الوليد»** قال عتبة بن ربيعة: إذا كنت تريد بهذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا [١] تراه لا تستطيع رده طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ.

أتم عتبة كلامه والحبيب يسمع له حتى فرغ من كلامه وقال: **«اسمع يا أبا الوليد»**:

{حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً

---

(١) الرئيا: هى ما يظهر من الجن كالمس (وهى خلاف الرؤيا).

عَرَبِياًّ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ} [فصلت ١ - ٥].

ثم مضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت إليه ثم قرأ رسول الله ﷺ إلى آية السجدة منها فسجد ثم قال: **«سمعت يا أبا الوليد؟ فأنت وذلك»** (١).

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائى أنى قد سمعت قوله والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة يا معشر قريش، أطيعونى واجعلوها بى، وخلو بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه. فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم، فإنه تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، فقالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيى فيه، فاصنعوا ما بدا لكم(٢).

* * *

(١) سيرة ابن هشام (تحقيق د. السرجانى) ملخص ما نشر ص ٢٨١، جـ١.

(٢) نفس المصدر السابق: ص ٢٨٢.

-٣٠-

الجهر بالقرآن

قال ابن هشام فى السيرة النبوية: أول من جهر بالقرآن هو عبد الله بن مسعود.

قال ابن إسحاق: وحدثنى يحيى بن عروة بن الزبير، عن أبيه، قال: كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة عبد الله بن مسعود ﵁ قال: اجتمع يوما أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط، فمن رجل يُسمعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا. قالوا: إنا نخشاهم عليك، وإنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إذا أرادوه فقال: دعونى فإن الله سيمنعنى، قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام فى الضحى وقريش فى أنديتها، حتى قام عند المقام ثم قرأ رافعا بها صوته:

{الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ} قال: ثم استقبلها يقرؤها.

قال: فتأملوا فجعلوا يقولون. ماذا قال ابن أم عبد؟ قال: ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه، فجعلوا يضربون فى وجهه وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا فى وجهه، فقالوا له: هذا

الـذى خشـينا عليـك، فقـال: مـا كـان أعـداء الله أهـون علـىّ مـنهم الآن، ولـئن شـئتم لأغـادينهم بمثلهـا غـدا، قـالوا: لا حسـبك. قـد أسـمعتهم مـا يكرهون(١).

ولــم يكتفــوا أهــل قــريش بإيــذائهم للحبيــب ﷺ بــل ظلــوا علــى عنــادهم وشــركهم والرســول الكــريم صــلوات الله وســلامه عليــه يســامح ويعفــو عــنهم فــى ســبيل إظهــار دعوتــه، وكــان أبــو بكــر الصـديق ﷺ يـرى الكثيـر مـن تعـذيب قـريش لمـن أسـلم مـن الأتبـاع والعبيـد فكـان يشـترى مـن يقـدر علـى شـرائه مـن العبيـد ثـم يعتقـه لوجه الله ومنهم بلال بن رباح وست نفر غيره.

* * *

(١) نفس المصدر السابق: ص ٢٩٩، جـ ١.

-٣١-

القرآن المعجز

أنـــزل الله تعـــالى القـــرآن ليؤكـــد إنـــه إعجـــاز أنزلـــه علـــى قلـــب الحبيـــب محمـــد ﷺ وقـــد بـــين الله تعـــالى أن الرســـول الكـــريم ﷺ جـــاءهم بالحق وخيرهم بين الآيات والكفر وتبين الآيات ذلك، قال تعالى:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً} [النساء: ١٠].

ولكـــن قلـــوبهم المغلقـــة تـــأبى أن تســـمع القـــرآن، ويكفـــرون بـــه ويغضـــب الله علـــيهم ويعـــدهم بالعـــذاب، ويصـــرون علـــى العنـــاد والكفـــر ومهمـــا تعـــرض علـــيهم الآيـــات لا يؤمنـــون ويـــدعون أنهـــم آمنـوا بمـا أنـزل علـيهم مـن قبـل ويسـألهم الله لـو أنكـم مؤمنـون لـم كنـتم تقتلون الأنبياء من قبل.

وقـــد صـــور الله ذلـــك فـــى آيـــات مـــن القـــرآن المعجـــز لـــيفهم الكفـــار أن محمدا ﷺ لم يأت بهذا الكلام من عنده، قال تعالى:

{وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ، بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ

اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [البقرة: ٨٩ - ٩١].

{وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٠١].

والقرآن المعجز زاخر بآياته التى تؤكد صدق الكتاب وصدق الرسول الكريم وما عرضاه أمثلة بسيطة.

* * *

-٣٢-

الهجرة الأولى إلى الحبشة

بعد ملاحقة اليهود والمشركين من أهل مكة لمحمد بن عبد الله ﷺ وصحبه من المسلمين وإيذائهم له بكل الوسائل وغضبهم المستمر على المسلمين فاشتد البلاء وكثر التعذيب لأصحاب الحبيب ﷺ وضاق المسلمون بما يفعله هؤلاء المشركون، وبعد نزول سورة الكهف رأى رسول الله ﷺ أن فى الآية الكريمة قال تعالى:

{وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً} [الكهف: ١٦].

إشارة لطيفة بالهجرة فى قوله تعالى:

{وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ} فقرر الحبيب ﷺ الهجرة إلى الحبشة.

قال ابن إسحاق: فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، بمكانة من الله ومن عمه أبى طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يُظلم عنده أحد، وهى أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه، فخرج

عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفرارا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام [١].

كانت الهجرة في السنة الخامسة من بعثة الحبيب ﷺ :

هاجر المسلمون إلى الحبشة على دفعات الأولى كانت أحد عشر رجلا وأربع نساء ثم كمل العدد إلى ثمانين مهاجرا وكان على رأس المهاجرين وأولهم: عثمان بن عفان رضي الله عنه ومعه زوجته رقية بنت الحبيب محمد ﷺ وجعفر ابن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم وامرأته أسماء بنت عميس، ومن كل قبائل قريش هاجر من هاجر فكان من بنى هاشم، ومن بنى أمية، ومن بنى أسد بن خزيمة ومن بنى شمس، ومن بنى نوفل، ومن بنى أسد بن عبد العزى ابن قصى، ومن بنى عبد بن قصى، ومن بنى عبد الدار بن قصى، ومن بنى زُهرة بن كلاب، ومن بنى هذيل، ومن بنى بهراء، ومن بنى تميم، ومن بنى مخزوم، ومن حلفائهم، ومن بنى جمح، ومن بنى سهم، ومن بنى عدى، ومن بنى عامر، ومن بنى الحارث، وقد تجمع من هؤلاء القبائل حوالى ثلاثة وثمانون رجلا وامرأة بخلاف أولادهم.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٠٥.

بدأ القلق عند المشركين والخوف من محمد ﷺ أن ينشر دعوته فى أرض الحبشة فأرسلوا رسولين من مكة إلى النجاشى ملك الحبشة وهم: (عمرو بن العاص، عبد الله بن أبى ربيعة) وقد حملتهم قريش بالهدايا والمنن للنجاشى وقساوسة الكنائس عندهم ليُسلم لهم المسلمين وكانت هداياهم مغرية ونفيسة، جلس الرسولان بين يدى النجاشى وقالا: أيها الملك إنه قد ضوى[١] إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم؛ فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه [٢].

وكان رسولا قريش قد اتفقا مع القساوسة أن يعاونوهم على هذا الأمر بعد إغراقهم بالهدايا، وحاول القساوسة أبعاد النجاشى عن المسلمين إلا أنه أبى وأمر بلقائهم، وسألهم حين التقى بهم: ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به فى دينى ولا دين أحد من هذه الملل؟

---

(١) ضوى: أتى.

(٢) حياة محمد (د. محمد حسنين هيكل) ص ١٠.

فرد عليه جعفر بن أبى طالب، وقال: " أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسئ الجوار ويأكل القوى منا الضعيف. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان. وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا. وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - وعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه به واتبعناه على ما جاء به من الله. فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبن ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نُظلم عندك ".

فقال النجاشى: " وهل معك مما جاء به عن الله من شىء تقرؤه علىّ؟ "

قال جعفر: نعم! وتلا عليه سورة مريم من أولها:

{كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً سَداً * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِياً * وَإِنِّي خِفْتُ المَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِياً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِياً * يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِياً * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِياً * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً * قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِياً * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ المِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِياً * يَا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِياً * وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِياً * وَبَراً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِياً * وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وَلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَياً * وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً * فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِياً * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِياً * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِياً * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِياً * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِياً * فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِياً * فَأَجَاءَهَا المَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا

وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِياً * فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِياً * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِياً * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِياً * فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِياً * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِياً * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِياً * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِياً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَياً * وَبَراً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِياً * وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وَلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَياً} [مريم: ١ - ٣٣].

فلما سمع البطارقة هذا القول مصدقا لما فى الإنجيل أخذوا وقالوا: هذه كلمات تصدر من النبع الذى صدرت منه كلمات (سيدنا يسوع المسيح) وقال النجاشى: إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة. انطلقا والله لا أسلمهم إليكما. فلما كان الغد عاد ابن العاص إلى النجاشى وقال له: إن المسلمين يقولون فى عيسى ابن مريم قولا عظيما، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه، فلما دخلوا عليه قال جعفر بن أبى طالب، فيه نقول الذى جاء به نبينا، يقول: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، قال تعالى:

{إِذْ قَالَـتِ المَلائِكَـةُ يَـا مَـرْيَمُ إِنَّ اللَّـهَ يُبَشِّـرُكِ بِكَلِمَـةٍ مِّنْـهُ اسْـمُهُ المَسِـيحُ عِيسَـى ابْـنُ مَـرْيَمَ وَجِيهـاً فِـي الـدُّنْيَا وَالآخِـرَةِ وَمِـنَ المُقَـرَّبِينَ} [آل عمران: ٤٥].

فأخذ النجاشى عودا وخط به على الأرض وقال - وقد بلغت من المسرة أكبر مبلغ: ليس بين دينكم وديننا أكثر من هذا الخط [١].

أحس النجاشى بصدق المسلمين وأنهم يعترفون بالمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، ويحثهم القرآن الذى جاء به محمد ﷺ من عند الله بالإيمان بعيسى عليه السلام، فأمر بأن يكون المسلمون فى بلدة آمنين، كذلك المسلمون أحسوا بأنهم آمنون وسعداء بجوارهم للنجاشى.

* * *

(١) حياة محمد: (د. محمد حسين هيكل) ص ١٠، ١١.

-٣٣-

إسلام النجاشى

بعدما سمع النجاشى كلام جعفر بن أبى طالب عن الإسلام والمسلمين ومحمد ﷺ وما به من قرآن كريم أسلم النجاشى وقد قام عليه قومه أيضا، ويقول ابن هشام فى السيرة النبوية:

قال ابن إسحاق: وحدثنى جعفر بن محمد، عن أبيه، قال: اجتمعت الحبشة فقالوا للنجاشى: إنك قد فارقت ديننا، وخرجوا عليه، فأرسل إلى جعفر وأصحابه، فهيأ لهم سفنا، وقال: اركبوا فيها وكونوا كما أنتم، فإن هُزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم، وإن ظفرت فاثبتوا. ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه. هو يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، ويشهد أن عيسى ابن مريم عبده ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم، ثم جعله فى قبائه عند المنكب الأيمن، وخرج إلى الحبشة، وصفوا له، فقال: يا معشر الحبشة، ألست أحق الناس بكم؟ قالوا: بلى، قال: فكيف رأيتم سيرتى فيكم؟ قالوا: خير سيرة، قال: فما بالكم؟، قالوا: فارقت ديننا، وزعمت أن عيسى عبد، قال: فما تقولون أنتم فى عيسى، قالوا: نقول هو ابن الله، فقال النجاشى: ووضع يده على صدره على قبائه، هو يشهد أن عيسى ابن مريم، لم يزد على هذا

شيئا، وإنما يعنى ما كتب فرضوا وانصرفوا، فبلغ ذلك النبى ﷺ فلما مات (النجاشى) صلى عليه، واستغفر له [١] .

وقد ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نعى النجاشى فى اليوم الذى مات فيه وخرج بهم إلى المصلى فصف بهم وكبر أربع تكبيرات، وقال البخارى: موت النجاشى حدثنا أبو الربيع، حدثنا ابن عيينة عن ابن جريج، عن عطاء، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ حين مات النجاشى: **«مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على أخيكم» (أصحمة)** " وروى ذلك من حديث أنس بن مالك وابن مسعود وغير واحد [٢].

"وأصحمة " وهو اسم النجاشى (أصحمة بن بحر) وأما النجاشى فهو معناه (الملك) [٣].

* * *

(١) سيرة ابن هشام: (تحقيق د. السرجانى) ص ٣٢١ جـ ١.

(٢) من البداية والنهاية لابن كثير: (تحقيق أ. صدقى العطار) ص ٤٣٠ جـ ٢.

(٣) مختصر من البداية والنهاية لابن كثير.

-٣٤-

كتاب المصطفى ﷺ إلى النجاشى

يقول الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية:

قال البيهقى فى الدلائل: باب ما جاء فى كتاب النبى ﷺ إلى النجاشى، ثم روى عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الغفار عن يونس، عن ابن إسحاق قال: " بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من رسول الله ﷺ إلى النجاشى الأصحم عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى، آمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، وأن محمدا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله فإنى أنا رسوله فأسلم تسلم ".

{قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ٦٤].

فإن أبيت فعليك إثم النصارى من قومك [(١)] (أخرجه الحاكم فى المستدرك والبيهقى فى دلائل النبوة).

ولكن ابن كثير يعاود الحديث عن كتاب الحبيب ﷺ إلى النجاشى فيقول: وأنسب من هذا ههنا ما ذكره البيهقى أيضا عن

---

(١) البداية والنهاية: (تحقيق أ. صدقى العطار) ٢ / ٢ جـ ٢، ص ٤٣٦.

الحاكم عن أبى الحسن محمد ابن عبد الله الفقيه حدثنا محمد بن حميد، حدثنا سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق. قال: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى فى شأن جعفر بن أبى طالب وأصحابه وكتب معه كتابا: " بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشى الأصحم ملك الحبشة، سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخته كما خلق آدم بيده ونفخه، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعنى فتؤمن بى وبالذى جاءنى، فإنى رسول الله وقد بعثت إليك ابن عمى جعفرا ومعه نفر من المسلمين، فإن جاءوك فأقرهم ودع التجبر فإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى، والسلام على من اتبع الهدى[١].

* * *

(١) البداية والنهاية: (تحقيق أ. صدقى العطار) جـ ٢، ص٤٣.

-٣٥-

رد النجاشي على الحبيب ﷺ

كتب النجاشي إلى رسول الله ﷺ: " بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أبجر سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته لا إله إلا هو الذي هداني إلى الإسلام فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا وقرينا ابن عمك وأصحابه فأشهد أنك رسول الله صادقا ومصدقا، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين، وقد بعثت إليك يا نبي الله بأريحا بن الأصحم بن أبجر فإني لا أملك إلا نفسي وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله، فإني أشهد أن ما تقول حق (١).

* * *

(١) البداية والنهاية (مصدر سابق) ص ٤٣٨ جـ ٢ عن البيهقي في دلائل النبوة.

-٣٦-

إسلام عمر بن الخطاب

من هو عمر؟

هو عمر بن الخطاب بن نضيل القرشى وهو من بنى عدى الأشراف.

كان عمر شأنه شأن باقى القرشيين يتردد على الحانات ويشرب الخمر ويفعل كل ما يفعله سادة قريش؛ وكانت مهنته الرئيسية هى: رعى الغنم ثم التجارة، وكان دائم الذهاب إلى الكعبة ليقرأ ما علق عليها من أشعار ومعلقات فهو يهوى الشعر والأدب، وكان عمر بن الخطاب مهابا قوى البنية والشكيمة مفتول العضلات وقاسى القلب على المسلمين وشديد الإيذاء لهم. ومع هذه القسوة كان حنوا على أهله وعشيرته!

ضاق عمر بن الخطاب بأمر المسلمين فقرر فى نفسه أن يقتل محمدًا ﷺ وخرج متقلدا سيفه يريد قتل الحبيب ﷺ فقابله رجل من الذين أسلموا يقال له (نعيم بن عبد الله النحام العدوى) وجرى بينهما الحوار التالى (نريد تصويره حواريا):

نعيم: إلى أين يا عمر؟ أو إلى أين تعمد يا عمر؟

عمر: أريد قتل محمدا! الذى سفه أحلامنا وعاب ديننا وسب آلهتنا!

نعيم: وهل تأمن على نفسك من بنى هاشم وعبد مناف إن قتلت محمدا؟ وأنهم سوف يتركونك تمشى على الأرض؟

عمر: والله ما أراك إلا أنك قد صبوت وخرجت عن دين آبائك وكفرت بآلهتك!

نعيم: ألا أدلك على عجبا يا عمر؟! ارجع إلى أهل بيتك وأقم فيهم أمرهم.

عمر: أهل بيتى؟! وأى أهل بيتى تقصد يا نعيم؟

نعيم: إن ختنك [١] وأختك فاطمة بنت الخطاب قد أسلما.

غضب عمر غضبا شديدا وثار ثورة عارمة وذهب إلى بيت أخته وكان زوج أخته ابن عم عمر ويدعى سعيد بن زيد.

طرق عمر الباب بشدة وعنف وأحس من بالداخل بعمر، فكانت فاطمة وسعيد ومعهما خباب بن الأرت يُقرئهما القرآن، وما أن أحسوا بصوت عمر إلا وخاف الجميع وارتجفوا من بطشه حتى إن خباب توارى عن رؤية عمر فلم يره، ودار بينهم

---

(١) ختنك: صهرك: أى زوج أختك (المعجم الوجيز ص ١٨٦).

الحديث التالى:

عمر: ما هذه الهينمة [١] التى سمعتها؟ فلم يجب أحد وعاود السؤال وزاد عليه وأنى قد علمت أنكما أسلمتما مع محمد وأصحابه!

وقبل أن يردا بطش بسعيد زوج أخته وضربه ضربا عنيفا شج به رأسه، وقامت فاطمة بنت الخطاب بالدفاع عن زوجها وتحول بينه وبين عمر إلا أنه ضربها حتى سال الدم من وجهها، وبكت فاطمة ورق قلب عمر لبكاء أخته، وقد كان حنوا على أهله جدا، فندم على ضربها الشديد وقد صورت كتب السيرة ما قالته فاطمة لعمر ودار هذا الحوار:

فاطمة بنت الخطاب: نعم لقد أسلمنا والله مع رسول الله ﷺ اصنع ما بدا لك يا عمر.

عمر: أرنى ما كنتما تقرآه (وكان عمر يعرف القراءة والكتابة ويقرأ ويكتب).

فاطمة: إنا نخشاك على ما نقرأ.

عمر: أقسم لك بأنى لا أمس صحيفتكم بسوء.

---

(١) هينمة: صوت خافت وخفى.

كانت فاطمة تفكر في أن يسلم عمر وكانت تطمع في أن يهديه الله إلى الإسلام. والحمد لله.

قالت فاطمة: هذه الصحيفة لا يمسها إلا المطهرون إنه قرآن كريم فأنزل الله سكينته على قلب عمر بن الخطاب وهداه الله والله يهدى من يشاء وقد صور لنا القرآن الكريم هداية الله فقال تعالى:

{وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [البقرة: ١٤٢].

{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ} [النحل: ٩٣].

{وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ} [الحج: ١٦].

{إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [القصص: ٥٦].

فالهدى من الله تبارك وتعالى.

قام ابن الخطاب واغتسل وتطهر من رجس الكفر والجاهلية، وأعطته فاطمة الصحيفة وكانت بها سورة طه فقرأ عمر بن الخطاب:

{طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى * تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ العُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى * وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى} [طه ١ - ٨].

قرأ ابن الخطاب الآيات البينات من سورة طه فخشع قلبه بمشيئة الله تعالى وقدرته وهداه الله فقال: ما أحسن هذا الكلام إنه ليس من قول البشر إنه لقول كريم.

فخرج خباب بن الأرت من مخبأه وقال: الله الله يا عمر لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: " اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبى جهل بن هشام ".

وقد ورد فى الأثر أن عمر بن الخطاب قد أسلم فى السنة السادسة من البعثة بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب وكان فى شهر ذى الحجة، وأن النبى ﷺ دعا إلى الله أن يهدى عمر للإسلام.

عن ابن عمر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: بعمر بن الخطاب أو بأبى جهل بن**

هشام» فكان أحبهما إلى الله عمر رضي الله عنه[١]. (أخرجه الترمذى عن حديث ابن عمر وصححه وأخرجه الطبرانى عن ابن مسعود وأنس).

الله الله يا عمر كلمة قالها خباب فرحا بهداية الله لعمر.

فقال عمر: أين محمد بن عبد الله الآن؟

خباب: فى الدار التى عند الصفا. أو قال فى دار الأرقم بن أبى الأرقم، خرج ابن الخطاب متوشحا سيفه قاصدا الحبيب صلوات الله وسلامه عليه، حتى وصل إلى الدار التى بها الحبيب ﷺ ونفر من أصحابه، وضرب الباب بعنف وهذا هو شأن عمر، فنظر أحد أصحاب الحبيب ﷺ وعاد وأخبرهم أنه عمر بن الخطاب متقلدا سيفه، فقام حمزة وقال لهم: ما بكم؟ قالوا: عمر! قال حمزة: افتحوا له الباب فإن كان يريد خيرا أعطيناه ما سأل، وإن كان يريد بنا شرا قتلناه بسيفه، وكان الحبيب ﷺ بالداخل يوحى إليه وخرج النور ﷺ ولقى عمر فأخذ بمجامع ثوبه (أمسكه من ثوبه من صدره) وجذبه جذبة شديدة، وقال: **«أما أنت منتهيا يا عمر حتى ينزل الله بك خزيا كما أنزل الخزى بالوليد بن المغيرة؟ اللهم: هذا عمر بن الخطاب، اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب»**. قالها

---

(١) الرحيق المختوم.

رسول الله ﷺ وهو يعلم بقلبه أنه مقبول الدعاء فقال ابن الخطاب: "أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ".

أسلم عمر بن الخطاب وكبر كل الحاضرين من صحابة رسول الله ﷺ حتى أن أهل المسجد سمعوا التكبير.

كان عمر لا يهاب أحداً وكان يمشى فى مكة معلنا إسلامه، وفرح المسلمون فرحا شديدا لإسلام عمر فزادهم عزا وشرفا ولم يزد الظالمين إلى خزيا ومذلة ومنهم أبى جهل.

روى ابن إسحاق بسنده عن عمر قال: لما أسلمت تذكرت أى أهل مكة أشد برسول الله ﷺ عداوة، قال: قلت: أبا جهل، فأتيت حتى ضربت عليه بابه فخرج إلى، وقال: أهلا وسهلا، وما جاء بك؟ قال: جئت أخبرك أنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد، وصدقت بما جاء به، قال: فضرب الباب فى وجهى وقال: قبحك الله، وقبح ما جئت به(١) .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: مازلنا أعزة منذ أسلم عمر، وقال: ما كنا نقدر على أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر (٢)، فلما أسلم قاتل قريش حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه، وأبى

---

(١) الرحيق المختوم: (عن صحيح البخارى باب إسلام عمر).

(٢) مختصر من الرحيق المختوم: ص ٩٣.

ﷺ أن يخفى إسلامه، بل جاهر به وأعلنه، قال أبو نعيم: لما أسلم عمر، قال: يا رسول الله، ألسنا على الحق؟ قال: «بلى»، قلت: ففيم الاختفاء؟.

فخرج المسلمون فى صفين، حمزة فى أحدهما، وعمر فى الآخر حتى دخلوا المسجد، يقول عمر: فنظرت قريش إلى وإلى حمزة فأصابتهم كآبة شديدة [١].

لقد كان إسلام عمر بن الخطاب فتحا مبينا على الإسلام والمسلمين، الله الله يا عمر أيها الفاروق الذى فرق بين الحق والباطل.

إنه عمر بن الخطاب القوى الشديد الذى كان غيورا على دينه وإسلامه.

ويحضرنى ما كتبه الدكتور (عبد الرحمن عميرة) فى كتابه (رجال ونساء أنزل الله فيهم قرآنا) عندما استعد عمر بن الخطاب ﷺ للهجرة إلى المدينة:

قال: روى على بن أبى طالب كرم الله وجهه: أنه قال ما علمت أن أحدا من المهاجرين هاجر إلا متخفيا إلا عمر بن الخطاب فإنه لما هم

---

(١) مختصر السيرة النبوية (عدة مصادر).

بالهجرة، تقلد سيفه، وتنكب قوسه وانتضى [١] من يده أسهما ومضى قِبل الكعبة - والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعا متمكنا ثم أتى المقام فصلى. ثم وقف على جماعتهم واحدة فقال لهم: " شاهت الوجوه[٢]. لا يرغم الله إلا هذه المعاصى - من أراد أن يثكل أمه أو ييتم ولده، أو يرمل زوجته، فليلقنى وراء هذا الوادى.

رضى الله عنك يا عمر.

* * *

(١) انتضى: أخذ السهام (مثل) (انتضى السيف أى أخرجه من غمده). (المعجم الوجيز).

(٢) شاهت الوجوه: أى قبحت الوجوه. (المعجم الوجيز).

-٣-

المقاطعة الآثمة

رأت قريش أن المسلمين يزداد عددهم يوما بعد يوم وأزعجهم إسلام رجلين من أعتى الرجال وأقواهم وأشجعهم. ألا وهما حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما.

ضاقت صدور الكفار بمحمد ﷺ وبما أنزل على محمد ﷺ، ولكنهم يخشوا القتال معه فعصبيته أصبحت كبيرة والمسلمون يزدادون بسرعة غريبة مما أثر على آلهتهم التى يعبدونها، وعلى مصالحهم التجارية، وقرروا قتل محمد ﷺ، وطار الخبر إلى عمه أبى طالب فجمع أهله وعشيرته وأنبأهم بما سمع، فقرر بنو هاشم وبنو المطلب أن يمنعوا كل من تسول له نفسه قتل الحبيب ﷺ وأدخلوه شعب أبى طالب حماية له وخوفا عليه.

كانت هذه الخطة مزعجة جدا لليهود والمشركين الذين أرادوا قتل المصطفى ﷺ وقرروا المقاطعة وهى مقاطعة بنو هاشم وبنو المطلب وحصارهم إثما.

كان ذلك الحصار فى العام السابع من بعثة الحبيب محمد صلوات الله وسلامه عليه، كان حصارا مخيفا مزعجا كل بنوده آثمة.

يقول فضيلة الشيخ / صفى الرحمن المباركفورى تحت عنوان (ميثاق الظلم والعدوان): اجتمعوا [(١)] فى خيف بنى كنانة من وادى المحصب فتحالفوا على بنى هاشم وبنى المطلب أن لا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يجالسوهم، ولا يخالطوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، ولا يكلموهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا ذلك فى صحيفة فيها عهود ومواثيق " أن لا يقبلوا من بنى هاشم صلحا أبدا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل ".

قال ابن القيم: يقال: كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم، ويقال: نصر بن الحارث، والصحيح أنه بغيض بن عامر بن هاشم، فدعا عليه رسول الله ﷺ فشلت يده [(٢)].

تم هذا الميثاق، وعلقت الصحيفة فى جوف الكعبة، فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم - إلا أبا لهب - وحُبسوا فى شعب أبى طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة.

لقد اشتد إيذاء الكفار للمسلمين بهذه المقاطعة، وكانوا يقفون على أول طريق الشعب ليضيقوا الخناق على المسلمين حتى أن أبا جهل بن هشام تعلق (بحكيم بن حزام بن خويلد) الذى كان

---

(١) المقصود هنا اليهود والمشركين.

(٢) الرحيق المختوم: ص ٩٦.

يحمل قمحا لعمته خديجة ورفض دخوله للمسلمين حتى تدخل من تدخل ويقال أنه أبو البخترى حتى أدخل حكيم بقمحه إلى المسلمين.

أى حقد وأى غل هذا الذى يفعله الكفار بالمسلمين.

طالت مدة الحصار إلى ثلاث سنوات حتى سنة عشر من البعثة المحمدية. وكان حصارا رهيبا، حصارا آثما فيه كل شر وحقد على المسلمين. اللهم من بعض نفر كان يرق قلبه للمسلمين من أمثال هشام بن عمرو الذى كان يملأ ظهر البعير قمحا وطعاما ويترك البعير على فم الشعب ليدخل للمسلمين، فى غفلة من المشركين.

ورأى هشام الحال الذى وصل إليه المسلمون من جراء الحصار وإيذائهم، فمر على زهير بن أبى أمية وهو ابن عمة رسول الله ﷺ فهو ابن عاتكة بنت عبد المطلب وسأله يا زهير هل أنت راض عن هذه المقاطعة على أخوالك وأعمامك وأهلك وعشيرتك؟. أنحن نأكل الطعام ونلبس الثياب ونتزوج النساء ونبيع ونشترى وهم جوعى؟ وتعاهدا على نقض هذه الصحيفة الآثمة والقطيعة الظالمة والظالم أهلها وقررا أن يستعينا بغيرهم من أهلهم وذويهم واجتمع أهل السيرة على أن الذين اتفقوا مع

هشام بن عمرو وزهير بن أمية هم: المطعم بن عدى، وأبو البخترى بن هشام، وزمعة بن الأسود، فأصبحوا خمسة نفر، ثم طاف زهير بن أبى أمية بالبيت وقال للناس: يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب ونتزوج النساء وأهلنا هلكى لا بيع لهم ولا شراء ولا زاد ولا شئ عندهم، إنها قطيعة ظالمة والله لنشق هذه الصحيفة الظالمة، فرفض (أبو جهل بن هشام) ذلك وتحفز بهم، أطلع الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه على أمر الصحيفة المعلقة فى جوف الكعبة بأن الله سلط الأرضة على الصحيفة فأكلت ما بها من ظلم وجور على المسلمين ولم تترك إلا ما ذكر فيه اسم الله.

وقف هشام بن عمرو وزهير والمطعم وأبو البخترى وزمعة وأعلنوا نقضهم للصحيفة أمام أهل مكة وأمام أبى جهل ابن هشام وغضب أبو جهل من كلام زهير وقال: لن تشق هذه الصحيفة وكان أبو طالب بن عبد المطلب قد خرج من الشعب وأتى المسجد، ودار كل هذا أمامه، وهو كبير بنى هاشم ومن وجهاء مكة وسيدا شريفا فى قومه، فخرج عن صمته وقال: لم هذه الصحيفة وهذا الجور وهذا الظلم، إن ابن أخى أخبرنى بأن الله أخبره أنه سلط الأرضة على صحيفتكم وأكلت كل ما فيها من جور ومن ظلم وتركت ما ذكر فيها اسم الله، فلنأت بالصحيفة إذا

كـان كـلام محمـد صـدق خرجنـا مـن الشـعب وانتهـت قطيعـة الظلـم وإن كان كاذبا سلمته إليكم.

بهت الذين كفروا والذين أشركوا وقاموا وأتوا بالصحيفة فوجدوا ما قاله الحبيب ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى صدقا وحقا وخذل الله أعداءه وصدق الرسول ﷺ فيما بلغ عن رب العزة إذ وجدوا الصحيفة قد أكلتها الأرضة ولم يتبق منها سوى " بسمك اللهم " فقال أبو طالب: فلم القطيعة؟ لقد نصر الله محمد ابن أخى [١] وأيد الله صدق الحبيب إذ قال تعالى:

{وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى} [النجم ٣ - ٥].

* * *

---

(١) مختصر من رواة السيرة.

-٣٨-

عام الحزن

بعد فك الحصار على الحبيب المصطفى ﷺ ورفاقه وأهله من بنى هاشم وبنى المطلب ظل الحبيب ﷺ يدعو للإسلام وينشر دعوته فى كل مكان ليظهر دين الله الحق ولو كره المشركون.

كان فك الحصار ونقض الصحيفة الآثمة فى العام العاشر من البعثة وكان الحبيب ﷺ عمره آنذاك خمسين عاما وسمع بمرض عمه أبى طالب الذى أحبه من كل قلبه والذى عاش فى بيته وآواه وكان سنده ضد مشركى مكة وكفارها وهو السيد المهاب الذى تخشاه مكة وتوقره؛ اشتد المرض على أبى طالب حتى وافته المنية ومات أكبر نصير لمحمد ﷺ وكانت فاجعة كبيرة للمسلمين عامة ولمحمد ﷺ خاصة فهو ناصره ومانع الكفار عنه، وحزن الحبيب حزنا كبيرا على عمه الذى كان يود أن يسلم ولكن...

مات أبو طالب ولم تمض عدة أيام إلا وماتت زوجته خديجة بنت خويلد رضى الله عنها وأرضاها.

يقول رواة السيرة المطهرة: إن وفاة السيدة خديجة كانت بعد وفاة أبى طالب بثلاثة أيام ومنهم من يقول أنها خمسة وثلاثين يوما ومنهم من يقول أنها ماتت بعد ثلاثة أشهر.

ماتت خديجة بنت خويلد التى أحبها رسول الله ﷺ حبا كثيرا فهى التى واسته فى كل شئ وآمنت به حين كفر به الناس.

عن عائشة قالت: توفيت خديجة قبل أن تُفرض الصلاة، وقيل كان موتها فى رمضان، ودفنت بالحجون، وقيل: أنها عاشت خمسا وستين سنة، وقال الزبير: تزوجها النبى ﷺ ولها أربعون سنة وأقامت معه أربعا وعشرين سنة. قال مروان بن معاوية الفزارى عن وائل بن داود عن عبد الله البهى قال: قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر خديجة لم يكد يسأم من ثناء عليها واستغفار لها فذكرها يوما فاحتملتنى الغيرة فقلت: لقد عوضك الله من كبيرة السن، فرأيته غضب غضبا أسقطت فى خلدى وقلت فى نفسى: اللهم إنك إن أذهبت غضب رسولك عنى لم أعد إلى ذكرها بسوء فلما رأى النبى ﷺ ما لقيت قال: (كيف قلت والله لقد آمنت بى إذ كفر بى الناس وآوتنى إذ رفضنى الناس وصدقتنى إذ كذبنى الناس ورزقت منها الولد وحرمتموه منى). قالت: فغدا وراح على بها شهرا [١].

لقد مات أكبر نصيرين للحبيب محمد ﷺ في هذا العام العاشر من البعثة ولذلك سماه الحبيب ﷺ عام الحزن لما فيه من آلام وأحزان.

* * *

(١) تاريخ الإسلام (للذهبى) ص ١٥٢، جـ ٢.

-٣٩-

دعوة أهل الطائف

بعد الحزن الذى أصاب الحبيب ﷺ ظل يدعو إلى الله، وذهب إلى مدينة الطائف التى تبعد عن أم القرى (مكة) بحوالى ستين ميلا (أى خمس وسبعون كيلو متر تقريبا) وقطع هذه المسافة مترجلا على قدميه وكان يصحبه فى هذه الرحلة مولاه (زيد بن حارثة) وكان ﷺ يدعو كل القبائل التى يمر بها للإسلام والدخول فى دين الله ولكن بلا جدوى، وظن أنه سوف يجد من أهل الطائف النصرة له ولدين الله.

عمد الحبيب ﷺ إلى ثلاثة إخوة من أهل ثقيف بالطائف وهم رؤساؤها وسادتها وهم (عبد ياليل، ومسعود، وحبيب) وهم أبناء عمرو بن عمير الثقفى. جلس الحبيب ﷺ إليهم محدثا عن الإسلام وعن الدخول فيه ولم يجد منهم إلا استهزاء وسخرية وتحدثوا معه بما لا يليق به.

يقول (الإمام الطبرى): حدثنا ابن إسحاق قال: حدثنى يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظى، قال: لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف وأشرافهم: وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل ابن عمرو بن عمير، ومسعود بن عمرو بن

عمير، وحبيب بن عمرو ابن عمير، وعندهم امرأة من قريش من بنى جمح، فجلس إليهم - فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاء لهم من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال أحدهم: هو يمرط [١] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك! وقال الآخر: ما وجد الله أحدا يرسله غيرك! وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدا لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك.

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقد قال لهم فيما ذكر لى إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا على، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيذئرهم ذلك عليه، فلم يفعلوا وأغروا به سفاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجؤوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه، ورجع عنه سفهاء ثقيف من كان يتبعه فعمد إلى ظل حبلة[٢] من عنب فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقى من سفهاء ثقيف، فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال فيما ذكر لى: " اللهم

(١) يمرط أى يمزق: والمعنى أنه لو أن الله أرسلك أنت فهذا يعنى تمزيق ثياب الكعبة.

(٢) حبلة: هى شجرة تنتج ثمرة من فصيلة القطانيات كالفول والعدس (المعجم الوجيز) ولكن هنا بمعنى أشجار العنب.

إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم ا لراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلى من تكلنى! إلى بعيد يتجهمنى، أو إلى عدو ملكته أمرى، إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بى غضبك، أو يحل على سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك " (١).

عداس النصرانى فى الطائف :

فلما رأى ابنا (ربيعة عتبة وشيبة) ما لقى تحركت له رحمهما فدعوا غلاما لهما نصرانيا يقال له (عداس) فقالا له خذ قطفا من هذا العنب، وضعه فى ذلك الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه!

ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله ﷺ - فلما وضع رسول الله ﷺ - يده قال «**بسم الله**» ثم أكل، فنظر عداس إلى وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة، قال له رسول الله ﷺ : «**ومن أى البلاد أنت يا عداس، وما**

---

(١) السيرة النبوية فى ضوء روايات الإمام الطبرى (د. أحمد عبد الرحيم السايح) الأزهر، ص ١٢، جـ٢.

دينك؟» قال: أنا نصرانى، وأنا رجل من أهل نينوى [١] - فقال له رسول الله ﷺ: **«أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟»** قال له: وما يدريك ما يونس بن متى؟ قال رسول الله ﷺ: **«ذاك أخى، كان نبيا وأنا نبى»**، فأكب عداس على رسول الله ﷺ يُقبل رأسه ويديه ورجليه.

قال: يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك فلما جاءهما عداس قالا له: ويلك يا عداس مالك، تُقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدى ما فى الأرض خير من هذا الرجل، لقد خبرنى بأمر لا يعلمه إلا نبى، فقالا: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك؛ فإن دينك خير من دينه [٢].

لقد شهد النصرانى بنبوة الحبيب صلوات الله وسلامه عليه أما قول ابنى ربيعة فهو قول خاطئ وشأنه فى الجحود شأن أهل الطائف.

* * *

(١) نينوى: بلدة فى شمال العراق.

(٢) السيرة النبوية فى ضوء روايات الطبرى، (د. أحمد السايح) الأزهر.

-40-

خطبة السيدة عائشة وزواجه ﷺ من سودة

بعد وفاة السيدة خديجة رضى الله عنها وأرضاها، زاد إيذاء قريش للحبيب محمد ﷺ وانقضت أيام الحداد على الزوجة الوفية المخلصة خديجة، فكر الحبيب ﷺ فى الزواج لتكون الزوجة سكنا له، وأليفا يؤنسه ولم يجد أفضل من بنت حبيبه وصديقه أبى بكر بن أبى قحافة (عائشة) وبالفعل حدّث أبا بكر فوافق على الفور فعقد عليها المصطفى ﷺ وهى عمر سبع سنوات، وأمهلها إلى تسع سنوات ودخل بها.

وفى أثناء السنتين تزوج رسول الله ﷺ من (سودة بنت زمعة بن عبد شمس) وهى مسلمة أسلمت منذ زمن هى وزوجها (السكران بن عمرو) وكانوا من الذين هاجروا إلى الحبشة ومات عنها زوجها بالحبشة فعادت إلى مكة وتزوجت بخير خلق الله كلهم صلوات الله وسلامه عليه.

* * *

-41-

الإسراء والمعراج

{سُــبْحَانَ الَّــذِي أَسْــرَى بِعَبْــدِهِ لَــيْلاً مِّــنَ المَسْــجِدِ الحَــرَامِ إِلَــى المَسْـجِدِ الأَقْصَـى الَّـذِي بَارَكْنَـا حَوْلَـهُ لِنُرِيَـهُ مِـنْ آيَاتِنَـا إِنَّـهُ هُـوَ السَّـمِيعُ البَصِيرُ}[الإسراء: ١].

الإسـراء: السـير لـيلا... المعـراج: الصـعود مـن بيـت المقـدس إلــى السـماوات العــلا. بعـد انتشـار الإسـلام بمكـة ومـا حولهـا مـن القـرى ومـع انتشـار الإسـلام يـزداد حقـد اليهـود والمشـركين علـى الحبيـب ﷺ والمسـلمين معـه ولكـن الله سـبحانه وتعـالى أراد وشـاء أن يرى محمد ﷺ من آيات ربه الكبرى قال تعالى:

{لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى} [النجم: ١٨].

لقـد كانـت رحلـة الإسـراء والمعـراج معجـزة كبـرى، انتقـل فيهـا الحبيـب ﷺ مـن مكـة المكرمـة إلـى بيـت المقـدس بفلسـطين ثـم عـرج بـه إلــى السـماوات العـلا والعـودة إلـى مكـة مـرة أخـرى فـى نفـس الليلة.

متى كانت رحلة الإسراء؟

اختلـف علمـاء السـيرة النبويـة فـى تحديـد الزمـان، فمـنهم مـن قـال أنهـا فـى السـنة الأولـى مـن النبـوة (الإمـام الطبـرى) ومـنهم مـن قـال

أنهـا سـنة (١٠) مـن النبـوة وقـول آخـر أنهـا سـنة (١٢) مـن النبـوة، وسنـة (١٣) مـن النبـوة، وكمـا يقـول فضـيلة الشـيخ صـفى الـرحمن المباركـافورى (فـى الرحيـق المختـوم) أن الأرجـح أنهـا كانـت بعـد وفاة السيدة خديجة رضى الله عنها.

الرحلـة: أتـى الأمـين جبريـل عليـه السـلام بـالبراق إلـى الحبيـب المصـطفى ﷺ، والبـراق: (دابـة) بيضـاء دون البغـل وفـوق الحمـار يضـع حـافره عنـد منتهـى بصـره أى: عنـد نهايـة رؤيـاه يضـع قدمـه دلالة على سرعة كبيرة وهى لمح البصر.

ركـب الرسـول ﷺ البـراق خلـف الأمـين جبريـل إلـى أن وصـلا إلـى بيـت المقـدس، وفـى الطريـق قُـدم إلـى رسـول الله ﷺ قـدحان أو إناءان من لبن وخمر فاختار اللبن ورفض الخمر.

فعـن أبـى هريـرة رضي الله عنه، أن النبـى ﷺ أُتـى ليلـة أُسـرى بـه بقـدحين مـن خمـر ولـبن، فنظـر إليهمـا فأخـذ اللـبن، فقـال جبريـل عليـه السـلام: " الحمـد لله الـذى هـداك إلـى الفطـرة لـو أخـذت الخمـر غـوت أمتـك " (رواه مسلم) [(١)].

إن رحلـة الإسـراء والمعـراج كانـت هديـة رب السـماء إلـى حبيبـه ومصـطفاه محمـد بـن عبـد الله ﷺ بعـد كثـرة إيذائـه مـن الكفـار

---

(١) رياض الصالحين: (النووى) ١٣٩١.

والمشـركين وبعـد عنـاء وجهـد أكرمـه الله وشـرفه برؤيـاه والصـعود إلى عرشه وسدرة المنتهى.

يقـول علمـاء السـيرة: إن رسـول الله ﷺ قبـل رحلـة الإسـراء والمعـراج وبينمـا كـان نائمـا بجـوار الكعبـة إذ أتـاه جبريـل عليـه السـلام وشـق صـدره وبطنـه فغسـل جوفـه بمـاء مـن زمـزم بيـده ثـم أخـرج قلبـه مـن صـدره ووضـعه فـى طسـت مـن ذهـب مملـوء بالحكمـة والإيمـان وغسـله بمـاء زمـزم وأخـرج منـه حـظ الشـيطان وأعـاده إلـى صـدر الحبيـب ﷺ، وبـدأ الحبيـب ﷺ رحلتـه ممتطيـا البـراق إلـى أن وصـل إلـى بيـت المقـدس فـربط البـراق فـى حلقـة بـاب بيـت المقـدس وهـى الحلقـة التـى كـان يـربط بهـا الأنبيـاء مـن قبلـه ودخـل البيـت (بيـت المقـدس) المسـجد الأقصـى فوجـد كـل الأنبيـاء والرسـل فـى شـرف اسـتقباله فصـافحهم جميعـا وصـلى بهـم إمامـا فهو خير خلق الله.

لا نعرف أى صلاة كانوا يصلون قبل فرض الصلاة فى تلك الليلة المباركة ثم عُرج بالحبيب المصطفى إلى السماوات العلا. وكانت قصة المعراج آية كبرى نسوق منها حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه.

قـال ابـن إسـحاق: وحـدثنى مـن لا أتهـم عـن أبـى سـعيد الخـدرى رضي الله عنه أنـه قـال: سـمعت رسـول الله ﷺ يقـول: «**لمـا فرغـت ممـا كـان فـى**

بيت المقدس أتى بالمعراج، ولم أر شيئا قط أحسن منه: وهو الذى يمد إليه ميتكم عينيه إذا حضر، فأصعدنى صاحبى فيه، حتى انتهى بى إلى باب من أبواب السماء يقال له: باب الحفظة، عليه ملك من الملائكة، يقال له: إسماعيل، تحت يديه اثنا عشر ألف ملك، تحت يدى كل منهم اثنا عشر ألف ملك " - قال: يقول رسول الله ﷺ: حين حدث بهذا الحديث: وما يعلم جنود ربك إلا هو - فلما دُخل بى، قال: من هذا يا جبريل؟ قال: محمد. قال: أوقد بعث؟ قال: نعم، قال: فدعا لى بخير: وقاله» (١). ويستطرد أبى سعيد الخدرى حديثه ويكمله عن رحلة المعراج العظيمة فيقول:

«رأيت بها رجلا جالسا تعرض عليه أرواح بنى آدم، فيقول لبعضها إذا عرضت عليه خيرا ويُسر به، ويقول: روح طيبة خرجت من جسد طيب، ويقول لبعضها إذا عُرضت عليه: أف، ويعبس بوجهه، ويقول: روح خبيثة خرجت من جسد خبيث. قال: " قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك آدم، تعرض عليه أرواح ذريته فإذا مرت به روح المؤمن منهم سُر بها، وقال: روح طيبة خرجت من جسد طيب. وإذا مرت به روح الكافر منهم أنف منها وكرهها، وساءه ذلك، وقال: روح خبيثة خرجت من جسد خبيث».

(١) من السيرة النبوية لابن هشام (تحقيق د. السرجانى)، ص ٣٠، جـ٢.

صفة أكلة مال اليتامى:

قال: " ثم رأيت رجالا لهم مشافر: كمشافر الإبل فى أيديهم قطع من نار كالأفهار(١)، يقذفونها فى أفواههم، فتخرج من أدبارهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة مال اليتامى ظلما ".

آكل الربا:

قال: ثم رأيت رجالا لهم بطون لم أر مثلها قط بسبيل آل فرعون(٢)، يمرون عليهم الإبل المهيومة (٣) حين يعرضون عن النار، يطؤون لا يقدرون على أن يتحولوا من مكانهم ذلك ". قال: " قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا ".

الزناة:

قال: " ثم رأيت رجالا بين أيديهم لحم سمين طيب، إلى جنبه لحم غث منتن يأكلون من الغث المنتن، ويتركون السمين الطيب "، قال: " قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يتركون ما أحل الله لهم من النساء، ويذهبون إلى ما حرم الله عليهم منهن ". قال: " ثم رأيت نساء معلقات بثديهن، فقلت: من هؤلاء يا

(١) الأفهار: جمع فهر وهم حجر على مقدار ملء الكف.

(٢) خص آل فرعون لأنهم أشد الناس عذابا يوم القيامة.

(٣) المهيومة: العاطش.

جبريل؟، قال: هؤلاء اللاتى أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم ".

قال ابن إسحاق: وحدثنى جعفر بن عمرو، عن القاسم بن محمد أن رسول الله ﷺ قال: **«لقد غضب الله على امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم، فأكل حرائبهم** (١)**، واطلع على عوراتهم»**. ثم رجع إلى حديث أبى سعيد الخدرى، وقال: " ثم أصعدنى إلى السماء الثانية، فإذا بها ابنا الخالة: عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا "، قال: " ثم أصعدنى إلى السماء الثالثة، فإذا فيها رجل صورته كصورة القمر ليلة البدر "، قال: " قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أخوك يوسف بن يعقوب "، قال: " ثم صعدنى إلى السماء الرابعة، فإذا فيها رجل فسألته: من هو. قال: هذا إدريس " - قال: يقول رسول الله ﷺ :

{وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِياًّ} [مريم: ٥] قال: " ثم أصعدنى إلى السماء الخامسة فإذا فيها كهل أبيض الرأس واللحية، عظيم العُثنون (٢)، ولم أر كهلا أجمل منه " قال: قلت: من هذا يا جبريل! قال: هذا المحبب فى قومه هارون بن عمران " قال: " ثم أصعدنى إلى

---

(١) الحرائب: الأموال.

(٢) عظيم العثنون: عظيم اللحية.

السماء السادسة، فإذا فيها رجل أدم [١] طويل أقنى [٢]، كأنه من رجال شنوءة. فقلت له: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أخوك موسى بن عمران. ثم أصعدنى إلى السماء السابعة، فإذا فيها كهل جالس على كرسى إلى باب البيت المعمور. يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يرجعون فيه إلى يوم القيامة. لم أر رجلا أشبه بصاحبكم، ولا صاحبكم أشبه به منه "، قال: " قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك إبراهيم.

قال: ثم دخل بى الجنة، فرأيت فيها جارية لعساء [٣]. فسألتها: " لمن أنت؟ " وقد أعجبتنى حين رأيتها، فقالت: لزيد بن حارثة، فبشر به رسول الله ﷺ زيد ابن حارثة ".

قال ابن إسحاق: ومن حديث ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبى ﷺ فيما بلغنى أن جبريل لم يصعد به إلى سماء من السماوات إلا قالوا له حين يستأذن فى دخولها: من هذا يا جبريل؟ فيقول: محمد، فيقولون: أو قد بعث إليه؟ فيقول: نعم، فيقولون: حياه الله من أخ وصاحب، حتى انتهى به إلى السماء السابعة، ثم انتهى إلى ربه، ففرض عليه خمسين صلاة فى كل يوم.

---

(١) الآدم: الأسود.

(٢) الأقنى: ما ارتفع أعلى أنفه وأحدب وسطه.

(٣) اللعساء: من لها حمرة فى شفتيها تضرب إلى السواد.

حديث موسى مع الرسول ﷺ فى تخفيف الصلاة :

قال رسول الله ﷺ : " فأقبلت راجعا، فلما مررت بموسى بن عمران، ونعم الصاحب كان لكم، سألنى: كم فرض عليك من الصلاة، فقلت خمسين صلاة كل يوم فقال: إن الصلاة ثقيلة، وإن أمتك ضعيفة، فارجع إلى ربك، فاسأله أن يخفف عنك وعن أمتك. فرجعت فسألت ربى أن يخفف عنى وعن أمتى، فوضع عنى عشرا ثم انصرفت فممرت على موسى، فقال لى مثل ذلك، فرجعت فسألت ربى أن يخفف عنى وعن أمتى، فوضع عنى عشرا ثم انصرفت فمررت على موسى، فقال لى مثل ذلك، فرجعت فسألت ربى فوضع عنى عشرا، ثم لم يزل يقول مثل ذلك، كلما رجعت إليه. قال: فارجع: اسأل ربك، حتى انتهيت إلى أن وضع ذلك عنى، إلا خمس صلوات فى كل يوم وليلة، ثم رجعت إلى موسى، فقال لى مثل ذلك، فقلت: قد راجعت ربى وسألته، حتى استحييت منه فما أنا بفاعل.

فمن أداهن منكم إيمانا بهن، واحتسابا لهن، كان له أجر خمسين صلاة"(١).

---

(١) من السيرة النبوية لابن هشام: (تحقيق د. السرجانى) ص ٣٠ - ٣٤، جـ٢.

فلمـا أصـبح رسـول الله ﷺ بعـد الليلـة المباركـة جلـس يقـص علـى النـاس مـا رآه لـيلا ومـا كـان مـن رحلتـه ولكـن النـاس كـذبوه وقـالوا: إن العيـر لتقطـع هـذه المسـافة فـى شـهرين أو ثلاثـة وأنـت تـزعم أنـك أتيـت ذلـك كلـه فـى ليلـة؟ وعلـى أثـر هـذه القصـة ارتـد كثيـرا مـن المسـلمين عـن ديـنهم. ولكـن قـالوا: نـذهب إلـى صـديقه وحبيبـه أبـا بكـر وجلسـوا إليـه وقـالوا: يـا أبـا بكـر مـا رأيـك فـى صـاحبك الـذى يـزعم أنـه جـاء بيـت المقـدس ثـم صـعد إلـى السـماء وعـاد إلـى مكـة فـى نفـس الليلـة؟ فلـم يتـردد الصـدوق أبـا بكـر وقـال: والله لـئن كـان قالـه لقـد صــدق، فمـا يعجـبكم مــن ذلــك فإنــه يــأتينى بخبــر مــن الســماء فأصـدق، ثـم ذهـب إلـى الحبيـب ﷺ فـى المسـجد فسـلم عليـه وسـأله: يـا نبـى الله أحـدثت القـوم أنـك جئـت بيـت المقـدس الليلـة؟ قـال الحبيـب ﷺ: «**نعـم**» فقــال: أبــا بكـر فصــفه لــى (لـم يكــن أبــا بكـر ممتحنــا للرســول ﷺ وإنمـــا أراد أن يـــرد المشـــككين) فتجلـــى لــــه المســـجد أمامـه صـورها الله لـــه كيفمـا شـاء وظـل الحبيـب ﷺ يصـف حتـى قـال أبــا بكــر الصــديق: نعــم صــدقت وأشــهد أنــك رســول الله، وســماه الحبيب من يومها بالصديق [1].

وقـد وردت أحاديـث كثيـرة عـن الإسـراء والمعـراج منهـا: حـديث لعبــد الله بــن مســعود، الحســن، قتــادة، عائشــة رضــى الله عنهــا،

---

(١) مختصر من السيرة النبوية.

ومعاويـــة وغيــرهم ولكــن ســوف نعــرض بعــض الأحاديــث التـــى تلخص الرحلة العظيمة ومنها حديث أم هانئ عن الإسراء.

حديث أم هانئ عن الإسراء:

قـال محمـد بـن إسـحاق: وكـان فيمـا بلغنـى عـن أم هـانئ بنـت أبـى طالـب رضـى الله عنهـا واسـمها هنـد فـى مسـرى رسـول الله ﷺ أنهـا كانـت تقـول: مـا أسـرى رسـول الله ﷺ إلا وهـو فـى بيتـى: نـام عنـدى تلـك الليلـة فـى بيتـى، فصـلى العشـاء الآخـرة، ثـم نـام ونمنـا، فلمـا كـان قبيـل الفجـر أهبنـا [١] رسـول الله ﷺ، فلمـا صـلى الصـبح وصـلينا معــه، قــال: " يــا أم هــانئ، لقـد صـليت معكـم العشــاء الآخــرة كمــا رأيـت بهـذا الـوادى، ثـم جئـت بيـت المقـدس فصـليت فيـه، ثـم صـليت صــلاة الغــداة معكــم الآن كمــا تــرين "، ثــم قــام ليخــرج، فأخــذت بطـرف ردائـه، فتكشـف عـن بطنـه كأنـه قبطيـة [٢] مطويـة فقلـت لــه: يــا نبــى الله، لا تحــدث بهــذا النـــاس فيكــذبوك ويــؤذوك، قــال: " والله لأحــدثنهموه "، قالــت: فقلــت لجاريـــة لـــى حبشــية: ويحــك اتبعـــى رسـول الله ﷺ حتـى تسـمعى مـا يقـول للنـاس، ومـا يقولـون لــه، فلمـا خـرج رسـول الله ﷺ إلــى النــاس: أخبـرهم، فتعجبـوا وقــالوا: مـا آيـة ذلـك يـا محمـد؟ فإنـا لـم نسـمع بمثـل هـذا قـط، قـال: " آيـة ذلـك أنـى

---

(١) أهبنا: أيقظنا.

(٢) قبطية: ثياب من الكتان يلبسه أهل مصر وهى منسوبة إلى الأقباط.

مررت على عير بنى فلان بوادى كذا وكذا، فأنفرهم حس الدابة، فند لهم بعير فدللتهم عليه، وأنا متوجه إلى الشام، ثم أقبلت حتى إذا كنت بضجنان [١] مررت بعير فلان فوجدن القوم نياما. ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشىء، فكشفت غطاءه وشربت ما فيه، ثم غطيت عليه كما كان، وآية ذلك أن عيرهم الآن يصوب من البيضاء: ثنية التنعيم، يقدمها جمل أورق، عليه غرارتان: إحداهما: سوداء، والأخرى: برقاء. قالت: فابتدر القوم الثنية فلم يلقهم أول من الجمل كما وصف لهم: وسألوهم عن الإناء فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءا ماء ثم غطوه، وأنهم هبوا فوجدوه مغطى كما غطوه، ولم يجدوا فيه ماء، وسألوا الآخرين وهم بمكة، فقالوا: صدق والله لقد أنفرنا فى الوادى الذى ذكر، وند لنا بعير فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه حتى أخذناه[٢].

قالوا عن الإسراء والمعراج:

يقول الإمام البوصيرى رحمه الله فى قصيدته بردة المديح المباركة:

سريت من حرم ليلا إلى حرم ::: كما سرى البدر فى داج من الظلم
وبت ترقى إلى أن نلت منزلة ::: من قاب قوسين لم تدرك ولم

---

(١) بضجنان: جبل يبعد عن مكة بحوالى ٤٠ كيلو متر.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (تحقيق د. السرجانى)، ص ٣٦٩، جـ ٢.

وقـــدمتك جميـــع الأنبيـــاء بهـــا ::: تـرم والرسـل تقـديم مخـدوم علـى
وأنـت تخـترق السـبع الطبـاق بهـم ::: خـدمفى موكـب كنـت فيـه صـاحب العلـم

وقـد نظـم إمـام الـدعاة ومجـدد هـذا القـرن فضـيلة الشـيخ محمـد متـولى الشـعراوى رحمـه الله وتغمـده بفسـيح جناتـه، قصـيدة عنوانهـا قصـيدة الإسـراء والمعـراج أوجـز فيهـا القصـة كاملـة بأبيـات مـن الشـعر، وقـد أصـدرت مجلـة الأزهـر كتابـا يحمـل اسـم (الشـعراوى إمـام الـدعاة مجـدد هـذا القـرن) فـى عـدد جمـاد الآخـرة ١٤١٩هـــ جـاءت فيـه هـذه القصـيدة والأبيـات التـى سـنذكرها ليسـت هـى كـل القصيدة وإنما أجزاء منها تخص الإسراء والمعراج وهى:

معجزة الإسراء:

اشـتاق " طـه " المصـطفى لمليكـه قـد ::: يـــا حبـــذا المشـــتاق للعليـــاء
قـال يـا " جبريـل " بلـغ خـالقى ذهـب " ::: أنـــى أود بـــأن أكـــون الرائـــى
الأمـين " إلـى الإلـه مخبـرا قـال الإلـه ::: والله يعلـــم كـــل شـــىء نـــاء
الضـيف عنـدى " أحمـد" الأرض شـرفها ::: أحضـر أيـا " جبريـل " تـى الأضـواء
ضـــــــــياء " محمـــــــــــــد " ::: فأمثـل بـه حتـى يـزور سـمائى

بدء الإسراء:

ذهب " الأمين وميكائيل " صحبة أخذا " رسول الله " للإسراء:

قـــد يممـــا بئـــرا " لزمـــزم " نابعـــا ::: ليطهـــر قلبـــا لـــه بالمـــاء
ذهبـــا فشـــقا صـــدره بمـــروءة ::: غسـلاه غسـلك أنظـف الأشـياء
مـــلأه إيمانـــا وعلمـــا راســـخا ::: قـــد أثلجـــاه بحكمـــة الحكمـــاء

خــلاه تــوا "كالنطاســى" بارعــا ::: لكــن همــا "نطــس" بغيــر دواء[١]

البراق:

ختمــاه ختمــا للنبــوة محكمــا ::: وأتــى "البــراق" "لأحمــد" بــولاء
لا بالمــذكر والمؤنــث مســرج ::: خيــر المطايــا مركــب الســعداء
هــو جــامع مــن كــل حســن خلقــه ::: متوســط فــى الخفــض والإعــلاء
رجــلاه بــل ويــداه عنــد ضــرورة ::: قصــرت وطالــت ســاقها برضــاء[٢]
وخطــاه فــى قطــع الفــلاة كلحظــة ::: ولحاظــه اســتولت علــى أرجــاء

ركب النبى:

ركــب الرســول علــى جــل مقامــه ::: ومشــى البــراق بمشــية الخــيلاء
ســاروا إلــى الأقصــى ينــار بــركبهم ::: كالشــمس فــوق القبــة الزرقــاء
قطعــوا الفيــافى والقفــار كطرفــة ::: للعــين أو كإشــارة الإيمــاء
رأوا العجائــب فــى الطريــق بأســره ::: اصــلوا ســوريا عنــد "طــور ســيناء"
"المســجد الأقصــى" رأوا فتهللــوا ::: نــزل النبــى ببابــه بمضــاء
أخــذ البــراق الــوحى جبريــل العــلا ::: لوكائــه فــى الصــخرة الصــماء

دخول المسجد والصلاة فيه:

دخــل "النبــى البيــت" بــدرا ســاطعا ::: فأعــاره نــورا يــراه النــائى
صــلى الملائــك خلــف أحمــد هــم ::: ديــن " الخليــل " وأعلنــوا بــدعاء
على رســلا يلــى ضــربا ســقوه ظامئــا ::: ورووه مــن هــذا بــديل المــاء [٣]
وقــد انتهــى الإســراء مقطوعــا بــه ::: وعروجــه بالجســم ذاك الجــائى

---

(١) النطاسى: الطيب.

(٢) أى أن رجليه تطول ويديه تقصر صاعدا والعكس بالعكس.

(٣) الرسل: العسل. الضرب: اللبن - بديل: بدل.

معراجه:

جاءوا بمرقاة من الذهب الذى ::: هو عسجد يدمى عيون الرائى
صعد "النبى" إلى السماء مكبرا ::: "جبريل" "ميكائيل" كالعشراء
ساروا بقدرته كأن طريقهم ::: جسر عريض مريم بفضاء

ولوج السماء الأولى:

لما أتوا " أولى " السماوات العلا ::: قرع " الأمين " لبابها بمضاء "
قال " الموكل " بالسماء مخاطبا ::: جبريل " هذا قائد الأضواء
من معك يا "جبريل"؟ قال "محمد" ::: نور الهداية صادق الأنبياء
سأل " الموكل" هل حظى برسالة ::: فأجابه: مهدى إلى الغبراء
فتح " الموكل " بالسماء فإذا به ::: أصل الخليقة دوحة الآباء " (١)
نوران قد لمعا على أرجائها ::: وترى " السماء " تزينت ببهاء
وأراه " آدم " كل شيء فوقها ::: متهللا بفضيلة شماء

السماء الثانية:

صعد " النبى " لما يليها شاكرا ::: لله من نعم وخير عطاء
جبريل يقرع بابها مستأذنا ::: رد الموكل سائلا بوفاء
من معك يا جبريل؟ قال محمد ::: خير البرية " أحمد " الوجهاء
فتح السماء مرحبا " بمحمد " ::: : عيسى كذا يحيى من الشهداء
قد قابلاه بكل بشر واضح ::: " يا مرحبا " بالقادم الوضاء
دعيا له بالخير خالص دعوة ::: وكذا يكون الحب للنبهاء

السماء الثالثة:

صعد "النبى" مع الأمين إلى العلا ::: وصلا " لثالثة " بغير عناء
جبريل يقرع بابها لولوجه ::: مرحا فقال " موكل " بسماء

---

(١) الدوحة: أصل الشجرة والمراد بها أبو البشر سيدنا آدم عليه السلام.

مـن معـك يـا "جبريـل"؟ قـال: "محمـد" ::: قطـــب الوجـــود و " أحمـــد "
فــتح الســماء مرحبــا " بمحمــد " ::: النبلاءفـــإذا "بيوســـف" فـــاتن
حيـــاه خيـــر تحيـــة ممزوجـــة ::: الحسـناء[1]حبـا وذلـك أعظـم الآلاء [2]

السماء الرابعة:

وصــلا "لرابعــة" الســماوات العــلا ::: " جبريــل " يقرعهــا بخيــر نــداء
مـن معـك يـا "جبريـل"؟ قـال "محمـد" ::: ضـــيف العـــلا ومنـــور الأرجـــاء
فــتح " الموكــل " بالســماء فــإذا بــه ::: " إدريــس" قــوم صــادق الأنبــاء
فــدعا لــه بــالخير حتــى المرتقــى ::: صــعدا " لخامســة " بغيــر تنــاء

السماء الخامسة:

قــرع " الأمــين " لبابهــا مســتأذنا ::: قـال " الموكـل " مـن ببـاب سـمائى؟
فأجابــه: " جبريــل " فـــافتح بابهـــا ::: ســـأل " الموكـــل " قائـــد النـــبلاء
مـن معـك يـا "جبريـل"؟ قـال: "محمـد" ::: مستأصـــــل الأشـــــراك بـــــالأبراء

السماء السادسة:

صـــعدا " لسادســـة " الســـماوات ::: العـلا و"محمـد" هـو أفضـل النـزلاء
قــرع " الأمــين " لبابهــا مســتأذنا ::: ســأل الــذى فيهــا بكــل حيــاء
مـن معـك يـا" جبريـل "؟ قـال: "محمـد" ::: هـــادى البرايـــا أول الشـــفعاء
فـــتح الـــذين ببابهـــا وتهللـــوا ::: وإذا بحفـــل كـــان كالجمـــاء [3]
وإذا " بموســـى " بيـــنهم متهلـــل ::: و " محمـــد " كـــالزهرة الفيحـــاء

---

(١) المراد بها امرأة العزيز.

(٢) الآلاء: النعم.

(٣) الجماء: بمعنى الكثير.

السماء السابعة:

صـــعدا " لســـابعة " الســـماوات ::: العـلا حتـى أتوهـا جيئـة الأنـواء[١]
قـــرع " الأمـــين " لبابهـــا مســـتأذنا ::: سـأل الـذى فيهـا بكـل حيـاء
مـن معـك يـا " جبريـل "؟ قـال: "محمـد" ::: تـاج الفخـار و"مصـطفى" الأسـماء
فـــتح " الموكـــل " مســـرعا ومرحبـــا ::: فـإذا " خليـل الله " جـا للقـاء
وأراه " أمتــــــه " أراه مقامهـــــــا ::: فـى جنـة " الأخـرى " بغيـر خفـاء
وأراه شــــــيئا غـــــاب عنـــــى ::: وصـفه وأراه مـأوى محتـد الأكفـاء
ورأى " النبـــى " عجائبـــا فـــى طيهـــا ::: للكـــافرين بـــه وللأعـــداء

سدرة المنتهى:

وصــلا إلــى المعمــور ثــم لســدرة ::: المنتهــى عــن صــادق الإيحــاء[٢]

موقف جبريل:

وهكـــذا تـــرى "جبريـــل" ذا متـــأخر ::: عـــن ســـيرة فرنـــا لـــه بنـــداء
أكـــذاك يتـــرك كـــل خـــل خلـــه ::: عنـــد الشـــدائد؟ لا تكـــن متنـــائى
فأجابـــه هـــذا مقـــامى يـــا " أخـــى " ::: وســـأحرقن إذا تركـــت بقـــائى
لكـــن تقـــدم للعـــلا فـــى مـــأمن ::: والله إنـــك أرفـــع الأشـــياء

طريق النبى:

حجـب "لطـه المصـطفى" قـد فتحـت ::: فاجتازهـــا فـــى مـــأمن ورخـــاء
قـد زج فـى بحـر مـن النـور الـذى ::: هـــو نـــور وجـــه الله خيـــر ضـــياء

رؤية الله وكلامه:

ورأى الإلـــه بغيـــر كيـــف رؤيـــة ::: بـــالعين فـــاقطع مريـــة الجهـــلاء[٣]

---

(١) الأنواء: الرياح الشديدة.

(٢) الإيحاء: بمعنى الوحى.

(٣) الكيف: الهيئة والصورة. المرية: الشك.

ودنـا مـن " المحمـود " جـل جلالـه ::: قـــال: التحيـــة خـــالق الأرجـــاء
قـال: السـلام عليـك يـا خيـر المـلا ::: أهـــلا بمطلـــوبى وعـــز ســـمائى

نعمة الله عليه:

أبــدى لــه كــل الفضــائل ســاقيا ::: كــأس المحبــة " أحمــدا " بصــفاء
غمـس " النبـى " ببحـر مـاء جلالـه ::: ووقـــاره وســـقاه بالصـــهباء (١)

فرض الصلاة:

فـرض "الإلـه" علـى "النبـى" لأمـة ::: خمســـين فرضـــا واجبـــى الأداء

أوبته:

حظـــى النبـــى محمـــد بإلهـــه ::: وقــد انثنــى الخــوف بــالآلاء (٢)
وإذا بموسـى قـال: كـم فرضـا لكـم؟ ::: فأجابـــه: خمســـون لـــلأداء
ارجـع فسـله كـى يخفـف ربكـم ::: فرضـــا فـــأنتم أضـــعف الأبنـــاء

تخفيف الصلاة ورجوعه:

رجـع النبـى إلـى الإلـه مكـررا ::: فبقـــت خمـــس بخيـــر جـــزاء
نــزل النبـى وقــد تحلـى بــالعلا ::: وأتـــى بخيـــر شـــريعة ســـمحاء
والسـر فـى تزويـد موسـى أحمـدا ::: كـــى يســـتريح محمـــد النـــبلاء
ركـــب النبـــى مفـــاخرا ببراقـــه ::: جبريـــل ســـار بـــه بغيـــر تنـــاء

موقف قريش من خبره:

نظـرا " لعيـر " فـى الطريـق فـإذا بـه ::: هــو مــن قــريش وقــد رنــا بنــداء (٣)
قـالوا لـذلك صـوت " طـه أحمـد " ::: والله خصصـــهم مـــن الشـــهداء
عـرف "النبـى" صـفات غيـرهم لكـى ::: يجلـــى قلـــوبهم مـــن الأصـــداء

---

(١) الصهباء: اسم من أسماء الخمر.

(٢) الآلاء: النعم. المحفوف: المحاط.

(٣) العير: القافلة.

ذهـب " النبـى " إلـى مقـر مقامـه ::: ومكانـــه بحـــرارة البرحـــاء [١]
لمـا بــدا فلــق الصـباح بنــوره ::: وأتــى أبــو جهــل أبــو الجهــلاء
قــص النبــى عليــه خبــرا صــادقا ::: فأتـــــاه بالآبـــــاء والأبنـــــاء
حقـا "أبـو جهـل" لـه الجهـل انتمـى ::: جهــل المعــارض ذاك أفحــش داء
قـد كـذبوه سـوى "أبـى بكـر" فقـد ::: وافـــاه بالتصـــديق والإصـــغاء

حجتهم على أنفسهم:

فقـد لقبـوك "أميـنهم" يـا مصـطفى ::: مــذ كنــت طفــلا صــادق الأنبــاء
فعــلام قــاموا ينقضــون كلامهــم؟ ::: عجبــا! يجــيء البــرء بالأشـفاء؟[٢]

استشهاد النبى بعيرهم:

قـــالوا: بعيـــد أن يكـــون مقالـــه ::: فأجـــابهم: يـــأتيكمو نصـــرائى
يــأتيكمو "عيــر" لكــم هــو نــاظرى ::: فســـلوه يخبـــركم بتـــى الأنبـــاء

تأخير غروب الشمس لتأخر العير عن ميعاده:

جلسـوا لمقـدم "عيـرهم" فتـأخرت ::: والشـمس قـد حانـت إلى الإخفـاء
فـدعا "النبـى" إلـى "الإلـه" فردهـا ::: حتــى أتــى " عيــر " لهــم بــولاء
قـــالوا: رأينـــا ركبـــه لـــيلا ســـرى ::: قطعـــوا لســـان الـــزور للجهـــلاء

حسم تعجيزه:

قالوا: لـه صـف يـا " محمـد " مـا رأت ::: عينـاك فـى " بيـت " بـلا اسـتزراء
خجـل "النبـى" إذا "بجبريـل" أتـى ::: بالبيـت بـين " يديـه " كـاللألآء [٣]
وصـف النبـى "البيـت" وصـفا جامعـا ::: فأصــاب كـــل حقيقـــة بجـــلاء
لا ينظـر " البيـت المقـدس " غيـره ::: عجبـــا لمعجـــزة دليـــل بـــراء

---

(١) البرحاء: المبارحة.
(٢) الأشفاء: الأهلاك.
(٣) النور الساطع.

كيف كان الإسراء والمعراج ؟

قالوا: بأنك كنت فى سنة الكرى ::: وسريت ثم عرجت فى إغفاء [١]
قد كنت يقظانا بجسمك ساريا ::: لكن رجعت بسرعة الوجناء [٢]

رد على المنكر:

إن كان هذا يستحيل وجوده ::: فلغير " أحمد " سيد الغبراء
إن لم يكن "إسراؤه" و"عروجه" ::: منهن عريبا ما حظى ببهاء
فاذعن بمعجزة تخص " بأحمد " ::: نور البسيطة دوحة الزهراء
وقد انتهى "معراجه" فلتؤمنوا ::: ولتقبلوه مرتبا ببنائى

لقد لخص الإمام الجليل محمد متولى الشعراوى هذه القصة بالأبيات السابق ذكرها وأنها لبليغة، فصلاة وسلاما على صاحب الرحلة خير خلق الله كلهم محمد بن عبد الله ﷺ.

* * *

(١) الإغفاء: النوم الخفيف.

(٢) الوجناء: الناقة السريعة.

-42-

العقبة الأولى

بعد عودة الحبيب ﷺ من رحلته بالطائف كان يعرض نفسه على القبائل قائلا لهم: أنا رسول الله إليكم وأدعو إلى عبادة الله الواحد وعدم الإشراك به، وكانت دعوته مستمرة طوال العام وتزيد في المواسم التجارية وفي فترة الحج. ثم التقى الحبيب ﷺ بستة رجال من أهل يثرب ودعاهم إلى الدخول في الإسلام فدخلوا وأسلموا بين يديه وكان ذلك في نهاية السنة الحادية عشرة من البعثة، وعاد أهل يثرب إلى بلدهم وقاموا بنشر الدعوة قدر استطاعتهم، ثم عادوا في السنة الثانية عشرة من البعثة وهم اثنا عشر نفرا.

يقول فضيلة الشيخ / صفى الرحمن المباركفورى فى الرحيق المختوم: روى البخارى عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: **«تعالوا بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه ين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصونى فى معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فى الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله، فأمره إلى الله إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه»**، قال:

فبايعته - وفى نسخة - فبايعناه على ذلك ".

وكانت تلك البيعة عند العقبة ولذلك سميت بيعة العقبة، وكان الاثنا عشر نفرا من الخزرج إلا اثنين من الأوس.

أما عن نص البيعة فهو كما ذكر ابن هشام: قال ابن إسحاق: وحدثنى يزيد بن أبى حبيب، عن أبى مرثد بن عبد الله اليزنى عن عبد الرحمن بن عسيلة الصنابحى، عن عبادة بن الصامت، قال: كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثنى عشر رجلا، فبايعنا رسول الله ﷺ بيعة النساء، وذلك قبل أن تُفرض الحرب، على ألا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه فى معروف وقال الحبيب ﷺ: **«فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء عذب وإن شاء غفر»** (١).

* * *

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢، ص ٣٩٢.

-43-

السفير المعلم

بعد البيعة أحس رسول الله ﷺ براحة لأهل يثرب وفكر فى أن يرسل معهم من يعلمهم دينهم وينشر دعوة الإسلام بينهم ووقع الاختيار على فتى قريش ذو القراءة الحسنة (مصعب بن عمير) وهو من أبناء عمومة رسول الله ﷺ فهو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى.

كان مصعب يؤم المصلين من الأوس والخزرج سويا لأن كل منهم يكره أن يؤمه الآخر.

كان مصعب بن عمير يدعو بالحسنى واللين والرفق والإقناع حتى أنه خرج يوما مع أسعد بن زرارة (من الأوس) قاصدين دار بنى عبد الأشهل (وهم الأوس) ودار بنى ظفر (وهم الخزرج) فلقيا الناس عند بئر يقال لها (مرق) منهم من أسلم ومنهم من هو على شركه، وبين هؤلاء الناس (سعد ابن معاذ) و (أُسيد بن حضير) وهما سيدا بنى عبد الأشهل (أى سيدا الأوس).

وما إن رأى سعد وأُسيد، مصعب وأسعد بن زرارة حتى غضبا وقال سعد لأُسيد اذهب إلى هذين الرجلين وازجرهما وأبعدهما عن ضُعفائنا وديارنا، وأنه لولا أن أسعد بن زرارة ابن

خالتى لخليت بينك وبينه، فأخذ أُسيد حربته وتوجه إلى الرجلين وسب مصعب وقال له: ما جاء بكما إلينا؟ تسفها ضعفائنا، اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال مصعب: أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمرا قبلته وإن كرهته كف عنك ما تكره. قال أُسيد: أنصفت ثم ركز حربته وجلس إليه فكلمه مصعب فى أمر الإسلام وقرأ عليه القرآن، فقال: ما أحسن هذا الكلام، وسأل كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين؟ قالا له: تغتسل وتتطهر وتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلى، وبالفعل فعل ودخل فى الإسلام وقال: إن ورائى رجل لو اتبعكما لم يتخلف أحد من قومه إلا ودخل الإسلام وسوف أرسله إليكم الآن. إنه سعد بن معاذ. وجاء سعد بالوجه الذى جاء به من قبل أُسيد ابن حضير وبيده حربته وفعل مع مصعب ما فعله أُسيد وتحمل مصعب وسأله أن يسمع منه شيئا وقد فعل، ودخل سعد بن معاذ الإسلام بعون الله ورجع إلى قومه: وقال يا بنى عبد الأشهل، كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيا. قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله. قالا: فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما ومسلمة ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده وظل يدعو

للإسلام حتى أسلم الكثير من أهل يثرب [١] .

رضــى الله عنـك يـا مصـعب، يـا مـن بـإذن الله وقدرتـه وفقـت بـين القلوب وأسلم على يدك الكثير وصلى الله وسلم على رسول الله.

* * *

(١) مختصر من سيرة ابن هشام: جـ ٢، ص ٣٩٥.

-44-

العقبة الثانية

فــى العــام الثالــث عشــر مــن البعثــة، وفــى موســم الحــج أتــى الحجيج من يثرب كعادتهم فى كل عام ومعهم مصعب بن عمير ﷺ وكانت هذه السنة فيها حجاج كثيرون ممن أسلموا فكانوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين.

كان هؤلاء المسلمون قد أتوا ضمن من أتوا من يثرب، ولكن المسلمين أشفقوا على الحبيب المصطفى ﷺ وظلوا يسألون أنفسهم إلى متى نترك رسول الله ﷺ يشقى بين جبال مكة وأوديتها؟ لماذا نترك رسول الله ﷺ يُطرد بين الأهل؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟.

اتفقوا فيما بينهم أن يلتقوا برسول الله ﷺ ويجتمعوا به عند العقبة أيضا (وهى شعب بالقرب من منى) ويكون ذلك فى أواسط أيام التشريق، فلما جاءت الليلة التى واعدوا فيها رسول الله ﷺ، قال ابن إسحاق: قال كعب بن مالك: فنمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ، نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى إذا اجتمعنا فى الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا، ومعنا امرأتان من نسائنا

(نسيبة بنت كعب) و (أم عمارة إحدى نساء بنى مازن بن النجار) و (أسماء بنت عمير وهى أم منيع) [١].

وصل الحبيب ﷺ إلى العقبة للقاء القوم وحضر مع الحبيب ﷺ عمه العباس ابن عبد المطلب وكان آنذاك على دين قومه (أى لم يسلم بعد) ولكنه أتى مع ابن أخيه ليطمئن عليه وليشهد البيعة.

بعد أن سلم الحبيب ﷺ على مسلمى يثرب جلس هو وعمه العباس، وتحدث العباس وقال: يا معشر الخزرج (الأوس والخزرج) إن محمدا ابن أخى منا وقد منعناه من قومنا وهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده وإنه أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده.

فردوا على العباس: سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله ثم قال: **«أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»**، فأخذ البراء بن

---

(١) سيرة ابن هشام: جـ ٢، ص ٣٩٨.

معرور بيده ثم قال: نعم والذى بعثك بالحق، لنمنعك مما نمنع أزرنا[١] فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة، ورثناه كابرا عن كابر، ثم تحدث أبو الهيثم ابن التيهان معترضا على قول البراء بن معرور فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالا [٢] وإنا قاطعوها - (يعنى اليهود) فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: **«بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم».**

قال ابن هشام: ويقال: الهدم الهدم: يعنى الحرمة. أى ذمتى ذمتكم، وحرمتى حرمتكم.

قال كعب بن مالك: وقد قال رسول الله ﷺ: **«أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا، ليكونوا على قومهم بما فيهم».** فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا " تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس [٣].

أسماء نقباء الخزرج:

١- أسعد بن زرارة بن عدس.

٢- سعد بن الربيع بن عمرو.

---

(١) أزرنا (أنفسنا ونساءنا).

(٢) حبالا: يقصد عهود، الرجال هنا اليهود.

(٣) مختصر من سيرة ابن هشام جـ ٢، ص ٣٩٩.

٣- عبد الله بن رواحة.

٤- رافع بن مالك بن العجلان.

٥- البراء بن معرور بن صخر.

٦- عبد الله بن عمرو بن حرام.

٧- عبادة بن الصامت بن قيس.

٨- سعد بن عبادة بن دليم.

٩- المنذر بن عمرو بن خنيش.

أما نقباء الأوس فمنهم:

١- أُسيد بن حضير بن سماك.

٢- سعد بن خيثمة بن الحارث.

٣- أبو الهيثم بن التيهان، ويقال: أن (رفاعة بن عبد المنذر) كان بدلا من أبى الهيثم بن التيهان.

تمت مبايعة الحبيب ﷺ على كل خير وود وصلاح وعلى كل بنودها مثل السمع والطاعة والنفقة فى اليسر والعسر والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ونصرة رسول الله ﷺ.

أزب العقبة:

قال ابن إسحاق: " فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط: يا أهل الجباجب: (الجباجب هى المنازل) - هل لكم فى مذمم [(١)] والصبأة معه قد اجتمعوا على حربكم. قال: فقال رسول الله ﷺ : " هذا أزب [(٢)] العقبة، هذا ابن أزيب " [(٣)].

قام المبايعون لرسول الله ﷺ يشهرون سيوفهم للحرب فهدأهم رسول الله ﷺ وقال لهم: "لم نُؤمر بالحرب ولكن ارجعوا إلى رحالكم". فسكت الجميع وناموا حتى الصباح.

بعد كلام الشيطان إلى أهل قريش الذى أثارهم واستفزهم، وذهب زعماء الشرك والكفر إلى أهل يثرب الذين لم يعرفوا شيئا عن المعاهدة وقالوا لهم: هل بايعتم محمدا على حربنا؟ فقالوا لهم: والله لا نعرف شيئا عن المعاهدة ولم نعاهد محمدا حتى أتوا عبد الله بن أبى بن سلول (رأس النفاق) الذى أكد للمشركين أن هذا لم ولن يتم ولم يجد المسلمون الذين بايعوا رسول الله ﷺ سوى الصمت حتى لا يفتك بهم المشركون.

---

(١) المذمم: يقصد الشيطان الملعون (محمد ﷺ).

(٢) أزب: اسم هذا الشيطان لعنه الله.

(٣) سيرة ابن هشام ص ٤٠٣، جـ ٢.

وظـل مشـركو مكـة يطـاردون أهـل يثـرب بعـد تأكـدهم مـن بيعـتهم لرسـول الله ﷺ لقـد كانـت بيعـة العقبـة الثانيـة إيـذانا بفـتح عظـيم فـى يثرب وأهل يثرب.

لقد عُرفت البيعة الثانية بالعقبة الكبرى.

* * *

-45-

الهجرة

لقد بشر المصطفى صلوات الله وسلامه عليه أهله وعشيرته وصحابته بالهجرة حيث أراه الله البلد الذى سيهاجر إليه.

قال رسول الله ﷺ : «**قد أُريت دار هجرتكم: رأيت سبخة** [١] **ذات نخل، بين لا بتين**» (وهما الحرتان) [٢]، فهاجر من هاجر قِبل المدينة حين ذكر ذلك رسول الله ﷺ، ورجع إلى المدينة بعض من كان هاجر إلى أرض الحبشة [٣].

بعد العقبة الكبرى ومبايعة أهل يثرب لرسول الله ﷺ زاد عناد المشركين للمسلمين وضيقوا عليهم سبل الحياة والعيش فأمرهم أن يخرجوا فرادى فرادى لكى لا يحس بهم الكفار، ولكن أهل الكفر كانوا للمسلمين بالمرصاد وعرفوا بخبر الهجرة وحاولوا رد المهاجرين عن هجرتهم وعن دينهم ومع ذلك كانوا يخشون الحرب لازدياد عدد المسلمين، وأحس الكفار بالخطر فإن محمدا لم يهاجر من قبل إلى الحبشة وكانت دعوة الإسلام

---

(١) سبخة: أرض ذات ملوحة لا تُنبت إلا بعض الشجر.

(٢) الحرتان: أراضى بها حجارة سوداء.

(٣) للحديث جزء من حديث طويل عن عائشة رضى الله عنها - صحيح البخارى (باب الكفالة) ص ١٣٠ - ١٣٤، الجزء الرابع.

تنتشــر وهــى أرض غيــر الأرض فمــا بــالهم بيثــرب وأهلهــا الــذين ناصــروه ومــع ذلــك لــم يكفــوا عــن إيــذاء المســلمين حتــى لا يتحــد مســلمو مكــة مــع مســلمى يثــرب فيصــبحون قــوة كبيــرة وهــذا مــا تخشــاه قــريش علــى نفســها وعلــى تجارتهــا فقوافــل مكــة التجاريــة تمــر على يثرب فى طريقها إلى الشام.

اســتمرت هجــرة المســلمين إلــى يثــرب رغــم أنــف المشــركين وســيدنا رســول الله ﷺ بــاقٍ فــى مكــة حتــى أن أبــا بكــر الصــديق اســتأذن فــى الهجــرة فقــال لــه الحبيــب ﷺ : **«لا تعجــل يــا أبــا بكــر لعــل الله يجعل لك صاحبا»**.

الهجــرة تــزداد وأهــل يثــرب يــؤازرون إخــوانهم المهــاجرين وتــزداد قــوتهم وعلــى النقــيض قــريش تعــذب مــن يخــرج مهــاجرا، ويحضــرنى مــا قالــه فضــيلة الشــيخ / صــفى الــرحمن المباركــافورى فى الرحيق المختوم على هجرة صهيب الرومى.

ولمــا أراد صــهيب الهجــرة قــال لــه كفــار قــريش: آتيتنــا صــعلوكا حقيــرا، فكثــر مالــك عنــدنا، وبلغــت الــذى بلغــت، ثــم تريــد أن تخــرج بمالــك ونفســك؟ والله لايكــون ذلــك. فقــال لهــم صــهيب: أرأيــتم إن جعلــت لكــم مــالى، أتخلــون ســبيلى؟ قــالوا: نعــم. قــال: فــإنى قــد جعلــت لكــم مــالى، فبلــغ ذلــك رســول الله ﷺ فقــال: «ربــح صــهيب ربــح

صهيب».

الله الله يا صهيب!! ربحت الله ورسوله رضى الله عنك.

أول المهاجرين إلى المدينة:

أبو سلمى وامرأته، عامر بن ربيعة وامرأته أم عبد الله بنت أبى حثمة، مصعب بن عمير، عثمان بن مظعون، أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، عبد الله ابن جحش، عثمان والزبير وطلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف وكثير من المسلمين المهاجرين.

واستمرت هجرة المسلمين إلى يثرب (مدينة رسول الله ﷺ).

علمت قريش أن محمدا ﷺ سيهاجر هو وأبو بكر إلى يثرب فأحسوا بالخطر الداهم فقرروا الاجتماع الطارئ فى دار الندوة.

دار الندوة والقرار:

وبعد أن أحس المشركون بالخطر على مصالحهم من تحالف يثرب مع المسلمين فقرروا القضاء على الدعوة كلها، ولكن كيف القضاء على الدعوة؟ لابد من القضاء على صاحب الدعوة.. لابد من القضاء على محمد بن عبد الله ﷺ.

أجمع الآثمون على قتل محمد، كان ذلك بعد حوالى شهرين ونصف من بيعة العقبة الثانية فى السنة الرابعة عشرة من البعثة.

اجتمع الآثمون فى دار الندوة وهى دار يملكها (قصى بن كلاب) وكان عادة أهل مكة لا يعقدون أمرا إلا فى هذه الدار، اجتمع سادة قريش من كل قبيلة رجلا سديد الرأى له مكانته فى قبيلته وعلى رأسهم أبو الحكم بن هشام (أبو جهل) وتعددت الآراء فى محمد صلوات الله وسلامه عليه.

قال قائل: نحبسه فى الحديد ونغلق عليه بابا فيصيبه ما أصاب غيره من الشعراء، فدخل عليهم (إبليس) لعنة الله عليه فى شكل رجل يلبس ملابس أهل نجد، واستطرد قائلا لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب إلى أصحابه فيكثرون ويغلبونكم.

قال آخر: نخرجه من ديارنا وندعه فلا نبالى أين ذهب؟

قال الشيخ النجدى (إبليس): أنتم تعرفون حلو حديثه وعذوبة منطقه فلو كان ذلك لاتبعه باقى العرب ويكون له الغلبة.

فكست الجميع وقالوا: فما الرأى إذن؟

يقول ابن هشام فى السيرة النبوية:

قال أبو جهل بن هشام: والله لى فيه رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد، قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا وسيطا فينا، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما ثم يعمدون إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه.

فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه بين القبائل جميعها فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا، رضوا منا بالعقل، فعقلناه[١]، قال: فقال الشيخ النجدى (إبليس): القول ما قاله الرجل، هذا الرأى الذى لا أرى غيره، فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له[٢].

ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

حدد المشركون ميعاد تنفيذ العملية الغادرة فى هذه الليلة وهم يتربصون بالحبيب ﷺ كان هو يدرس مع أبى بكر الصديق طريق هجرتهم فى جنح الليل ثم عاد الحبيب ﷺ من دار أبى بكر الصديق إلى داره استعدادا للهجرة.

---

(١) عقلناه: أى دفعنا لأهله الدية (المعجم الوجيز).

(٢) سيرة ابن هشام: ص ٤٢٨، جـ ٢.

تنفيذ القرار الغادر:

ولما جاء الليل نفذوا اتفاقهم وحضر فتيان قريش وبيد كل واحد منهم سيفه الصارم ليقتلوا الحبيب ﷺ. ولكن هل يترك الله سبحانه وتعالى حبيبه ومصطفاه؟ هل يدعهم يمكرون به ويقتلونه؟ وأنزل الله فيه قرآنا قال تعالى:

{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ} [الأنفال: ٣٠].

تربص أهل الشرك بباب المصطفى ﷺ الذى تنجيه عناية الله إذ ينزل الأمين جبريل عليه السلام ليقول للحبيب ﷺ لا تنم فى فراشك الليلة، فأمر رسول الله ﷺ الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه بأن يتغطى ببرده الأخضر الحضرمى وينام فى مكانه ويطمئنه أنه لن يناله سوء أبدا ولن ينال منه أحد وأمره بأن يؤدى الأمانات إلى أصحابها من أهل مكة، فكان أهل مكة رغم كفرهم وعنادهم لا يجدون سوى الأمين ليستودعوا عنده أماناتهم، امتثل الإمام على بن أبى طالب لأمر الرسول الكريم ﷺ وتغطى ببرده الأخضر ونام فى مكانه وكلما نظر أهل الشرك من ثقوب فى الباب يجدون النائم نائم فيظنون أنه رسول الله ﷺ ولكن عناية الله فوق كل شىء.

فلما خرج رسول الله ﷺ فإذا بهم نيام بقدرة الله وهم واقفون فنثر على وجوههم التراب وعلى رؤوسهم وتلا آيات بينات من سورة يسن قال تعالى:

{يس * وَالْقُرْآنِ الحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * تَنزِيلَ العَزِيزِ الرَّحِيمِ * لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ القَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَداًّ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَداًّ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ} [يس: ١- ٩].

لقد أغشاهم الله وأنامهم نوما عميقا وخرج رسول الله ﷺ مهاجرا إلى يثرب (مدينة سيدنا رسول الله ﷺ)، وبعد مدة أتاهم آت وقال لهم: ماذا تنتظرون هنا؟ قالوا: ننتظر محمداً يخرج علينا فنقتله!

قال لهم: خيبكم الله، لقد خرج عليكم محمد ووضع على رؤوسكم التراب وخرج لحاجته ورأى كل منهم التراب على رأس صاحبه، وأصروا على أن النائم هو محمد ﷺ فدخلوا على النائم فوجدوه على بن أبى طالب رضى الله عنه وأرضاه وسألوه أين محمد؟ قال على: خرج عنكم كما كنتم تريدون. فخرجوا

يبحثون عنه واقتفوا أثره ولم يجدوه.

قال ابن إسحاق: لما اجتمعوا له، وفيهم أبو جهل بن هشام " فقال وهم على بابه: إن محمدا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره، كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجُعلت لكم جنات كجنات الأردن، وإن لم تفعلوا كان لكم فيه ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها.

قال: وخرج عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال: " أنا أقول ذلك "، أنت أحدهم، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه، فلا يرونه، فجعل يثير ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات من يس:

{يس * وَالْقُرْآنِ الحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * تَنزِيلَ العَزِيزِ الرَّحِيمِ * لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ القَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَداًّ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَداًّ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ} [يس: ١- ٩].

حتى فرغ رسول الله ﷺ من هؤلاء الآيات، ولم يبق منهم رجل إلا قد وضع على رأسه ترابا، ثم انصرف إلى حيث أراد

أن يذهب، فآتاهم آت ممن لم يكن معهم، فقال: ما تنتظرون ههنا؟ قالوا: محمدا. قال: خيبكم الله، قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه ترابا، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟ قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليا فى الفراش متسجيا ببرد رسول الله ﷺ فيقولون: والله إن هذا لمحمدا نائما، عليه برده فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام على رضى الله عنه من الفراش فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذى حدثنا (١).

خرج الحبيب المصطفى ﷺ من بيته إلى بيت صاحبه أبى بكر الصديق وقال الحبيب ﷺ : **«لقد أُمرنا بالهجرة يا أبا بكر»**، فرح أبو بكر حتى اغرورقت عيناه بالدموع فكان أبو بكر الصديق يتمنى صحبة رسول الله ﷺ وكلما سأله متى أهاجر؟ كان رسول الله ﷺ يرد عليه لا تعجل لعل الله يجد لك صاحبا، لذلك كان سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه يعرف أنه سيكون فى صحبة الحبيب ﷺ فاشترى ناقتين وأعدهم فى بيته للرحلة الكبرى، فلما آتاه الحبيب ﷺ كان مستعدا للسفر، وخرج الحبيب ﷺ والصديق من باب خفى فى دار أبى بكر حتى لا يراهم المشركون واتجها فى الصحراء على عكس طريق يثرب تضليلا

---

(١) سيرة ابن هشام: ص ٤٢٨، جـ ٢.

للمشركين حتى صعدا جبل شاهق الارتفاع وعر المطلع يقال له جبل ثور. (وكان ذلك فى ٢ من شهر صفر سنة ١٤ من النبوة) [١].

اتفق أبو بكر الصديق مع دليل يعرف الصحراء أن يلقاهم بالراحلتين بعد ثلاث ليالى بغار ثور[٢] فى الجبل. وكان حلقة الوصل بين الحبيب وأبى بكر وبين أهل مكة عبد الله بن أبى بكر الذى يأتيهم بالأخبار والمعلومات وكانت أسماء تأتى لهم بالطعام دون أن يراها أحد.

ظل المشركون واقفين بباب محمد حتى علموا بخروج الحبيب ﷺ، أسرعوا للبحث عنه فى كل مكان جماعات ولا جدوى وساروا على أثر قدم المصطفى ﷺ حتى وصل فريق منهم إلى غار ثور وإذ بهم يروا المعجزة الكبرى! على باب الغار نسج العنكبوت خيوطه وعلى خيط العنكبوت نامت الحمامة فى أمن وأمان وتحتها بيضها. كيف كان ذلك؟ إنها إرادة الله. قال تعالى:

{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [يس: ٨٢].

قال الإمام البوصيرى رحمه الله فى بردة المديح:

---

(١) الرحيق المختوم: ص ١٤٢.

(٢) غار ثور على جبل ثور يبعد عن مكة حوالى ميلين وهى على مسيرة ساعة تقريبا.

ومـا حـوى الغـار مـن كـرم	:::	وكـل طـرف مـن الكفـار عنـه عمـى
فالصدق فى الغار والصديق لما يرما	:::	وهم يقولون ما بالغار من أرم
ظنوا الحمام وظنوا العكنبوت	:::	خير البرية لم تنسج ولم تحم
على وقاية الله أغنت عن مضاعفة	:::	من الدروع وعن عال من الأطم

سمع الحبيب وصحبه أصوات المشركين بل رأوا أشباحهم فخاف أبو بكر الصديق وقال: يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى قدميه لرآنا**!** ولكن الرسول العظيم يُطمئن أبا بكر ويقول له: **«يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟؟ يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا!»**.

لقد أعطى الله سبحانه وتعالى الرسول الكريم ﷺ هذا الإعجاز الفورى حيث نسيج العنكبوت والحمام، ثم صور الله مشهد الغار وخوف أبو بكر وتهدئة رسول الله ﷺ له فقال تعالى:

{إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٤٠].

رجع المشركون بخيبة الأمل وخرج الحبيب ﷺ وصحبه من الغار متجهين إلى يثرب ويخلفهم (عامر بن فهيرة) مولى أبى بكر لخدمتهم فى الطريق ومعهم الدليل القرشى عبد الله بن أريقط.

لم يكف المشركون ولم يهدؤوا وجن جنونهم أن خرج محمد وصحبه من أيديهم ولكن هى عناية الله، وجعلوا مكافأة لمن يرد محمدا مائة ناقة، وكانت المائة ناقة ثروة آنذاك، وهم فى حيرتهم إذ آتاهم رجل قادم إلى قريش وأخبرهم أنه رأى ثلاثة رجال مروا فى الطريق عن بعد ويظن أنه محمدا وصحبه، وكان وسط الجالسين سراقة بن مالك بن جعثم الذى تمنى أن تكون له المائة ناقة، فقال للرجل: لا إنهم بنو فلان.. تضليلا للمشركين ليغنم بالمكافأة، وظل يجالس أهل الكفر من أهل مكة فترة قليلة واستأذن منهم، ثم ذهب إلى بيته وأخرج جواده وأسهمه وحربته وخرج فى خلسة من أهل مكة متجها صوب الاتجاه الذى حدده الرجل.

كان سراقة بن مالك مشهورا بمعرفته بالصحراء وبفرسه الأغبر الذى اشتهر أيضا بالقوة، ولكن أى عجب هذا!! فلقد كبا الفرس مرة وغاصت يداه فى الرمل واستأنف المسير، وإذ به يكبو كبوة أخرى أشد ويستأنف المسير أيضا، وطار عقل سراقة عندما رأى الحبيب ﷺ وصحبه فى الطريق وتأكد بأنه ملاقيهم وظافرا بهم وظافرا بالمكافأة وعلى مقربة منهم كبا الفرس للمرة الثالثة كبوة عنيفة وقام واستأنف المسير واقترب سراقة حتى رآه الحبيب ﷺ، وإذ بالفرس يكبو الكبوة الرابعة التى ألقت بسراقة

علـى الأرض وغاصـت يـدا الفـرس ورجـلاه فـى الرمـال، وأحـس سـراقة بـالخطر وأن آلهتـه مـانعوه مـن صـيده ومغنمـه ولـذلك تراجـع عمـا فيـه وصـاح بالركـب مناديـا وقـال لهـم: يـا قـوم أنـا سـراقة بـن جعـثم انظرونـى أكلمكـم، فـوالله لا أريـبكم ولا يـأتيكم منـى شـىء تكرهونـه. هنـا وقـف الحبيـب ﷺ وصـحبه وطلـب مـن أبـى بكـر الصـديق أن يكتـب لـه كتابـا موثقـا بينـه وبيـنهم، وكتـب أبـو بكـر لـه كتابـا. وكـان سـراقة صـادق الوعـد وضـلل أهـل الكفـر والنفـاق والشـرك عـن الحبيـب ﷺ وصـحبه. وفـى فـتح مكـة أتـى سـراقة بـن جعـثم رسـول الله ﷺ وذكـره بالكتـاب. وقـال: يـا رسـول الله هـذا كتابـك أنـا سـراقة بـن جعـثم قـال: فقـال رسـول الله ﷺ " يـوم وفـاء وبـر أدنه " قال: فدنوت منه، فأسلمت (١).

بركات الحبيب ﷺ فى الطريق إلى يثرب:

فـى طريـق الحبيـب ﷺ إلـى يثـرب مـر بخيمـة أم معبـد الخزاعيـة وهـى امـرأة عربيـة مـن أهـل خزاعـة ولهـا خيمـة علـى الطريـق تسـقى وتطعـم مـن يمـر بهـا علـى قـدر اسـتطاعتها فهـى امـرأة كريمـة اليـد والخلـق وعنـدما وقـف عنـدها رسـول الله ﷺ هـو وصـحبه والـدليل سـألوها عـن طعـام يشـترونه فقالـت: والله مـا عنـدى شـىء (وكانـت

---

(١) هذه القصة ورد فيها حديث طويل بسيرة ابن هشام ص ٤٣٣، جـ ٢.

هذه السنة قحط) وليس عندها ما يكرم به الضيف.

نظـر الحبيـب ﷺ فوجـد شـاة واقفـة بالخيمـة وسـأل أم معبـد: **«أتأذنين لى أن أحلب هذه الشاة؟»**.

قالت: نعم.

دعـا الحبيـب ﷺ الله أن يبـارك فيهـا " وبسـم الله الـرحمن الـرحيم " امـتلأ ضـرع الشـاة لبنـا فسقى الحبيـب ﷺ أم معبـد وصـحبه والـدليل ثـم ارتـوى ومـلأ الإنـاء مـرة أخـرى وتركـه لأم معبـد وذهـب لحالـه فى طريقه إلى يثرب.

وبعـد خـروج الحبيـب ﷺ مـن عنـد أم معبـد حضـر زوجهـا وسـألها: مـن أيـن لـك بهـذا؟ ولا توجـد لـدينا حلوبـة؟ [١] فقالـت لـه أم معبد والله لقد مـر بنـا رجـل مبـارك وقصـت عليـه مـا كـان، قـال لهـا: صِـفيه! فلمـا وصـفته عـرف أنـه رسـول الله ﷺ، وقـال: والله إنـى لأراه صاحب قريش (يعنى بهذا أنه الرسول العظيم ﷺ).

وصول الحبيب ﷺ إلى قُباء:

سـار ركـب الحبيـب ﷺ قاصـدا يثـرب فمـر بقبـاء (منطقـة بـالقرب مـن المدينـة) فنـزل بهـا ويقـول المؤرخـون: إنـه كـان ذلـك يـوم الاثنـين الثـامن مـن ربيـع الأول سـنة ١٤ مـن النبـوة وشـهر ربيـع الأول هـذا

(١) حلوبة: (ليس عندنا ما يحلب اللبن).

يوافـق شـهر سـبتمبر سـنة ٦٢٢ ميلاديـة وكـان ذلـك فـى السـنة الأولـى مـن الهجـرة. وبـالرجوع إلـى التـواريخ الهجريـة (للـواء محمـد مختـار باشـا)[١] يكـون التـاريخ هـو الاثنـين ٨ ربيـع أول سـنة واحـد هجرية الموافق ١٣ سبتمبر ٦٢٢ ميلادية.

أقـام الحبيـب ﷺ بقبـاء عـدة أيـام أسـس فيهـا مسـجد قبـاء وهـو أول مسـجد بنـى فـى الإسـلام ثـم خـرج الحبيـب ﷺ قاصـدا يثـرب (المدينـة) وكـل القبائـل تتنـافس لكـى ينـزل الحبيـب ﷺ عنـدها وكـل واحـد مـنهم يمسـك بزمـام ناقتـه ليوقفهـا عنـده فيقـول الحبيـب: **«دعوهـا – أو خلـو، سـبيلها – فإنهـا مـأمورة»**، إلـى أن وصـلت إلـى أرض بنـى النجـار أخـوال أبيـه (كانـت مربـدا للتمـر يملكهـا يتيمـان همـا سـهل وسـهيل واشـتراها منهمـا الحبيـب ﷺ) وبركـت الناقـة فـى مكـان المسـجد النبوى الشريف الآن.

استقبال الحبيب ﷺ فى يثرب (المدينة):

بعـدما سـمع الأنصـار وأهـل يثـرب بخـروج الحبيـب ﷺ مـن مكـة مهـاجرا إلـيهم فكـانوا ينتظـرون قدومـه كـل يـوم علـيهم فـى حـر الظهيـرة ونـار الصـحراء ومـا أن رأوا بيـاض الثيـاب ونـور محمـد ﷺ حتى قالوا أبياتهم المشهورة مهللين مكبرين...

---

(١) التواريخ الهجرية (اللواء محمد مختار باشا) تحقيق: د. محمد عمارة.

طلـــع[1] البـــدر علينـــا ::: مـــن ثنيـــات الـــوداع
وجـــب الشـــكر علينـــا ::: مـــا دعـــا لله داع
أيهـــا المبعـــوث فينـــا ::: جئـــت بـــالأمر المطـــاع
جئـــت شـــرفت المدينـــة ::: مرحبـــا يـــا خيـــر داع

لقد أكرم الله رسوله ﷺ بهذه الأرض المباركة الصالح أهلها الذين ناصروه وأكرموه وأحسنوا معاملته، ولذا سماهم الحبيب ﷺ بالأنصار وسمى القادمين من مكة بالمهاجرين.

مجتمع المدينة:

أصبحت المدينة مجتمع جديد بعد إشراقة النور التى أصابتها بوصول الحبيب ﷺ إليها، وسكانها ثلاث فرق!

أولا: المسلمون من الصحابة والمهاجرين والأنصار.

ثانيا: اليهود من بنى النضير وبنى قريظة وبنى قينقاع.

ثالثا: باقى سكان المدينة من العرب الذين لم يسلموا بعد وهم على شركهم.

فكان أول مهام رسول الله ﷺ أن يؤاخى بين سكان المدينة من المهاجرين والأنصار أولا، وبالفعل آخى بينهم حتى أن الأنصار أحبوا المهاجرين وكانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة وقد صور لنا القرآن الكريم ذلك فى سورة الحشر.

---

(١) فى بعض الروايات (أشرق البدر علينا).

قال تعالى:

{وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: ٩].

تصوير جميل فى الحب والمحبة والتآخى وتحققت الوحدة بين سكان المدينة وترك حرية العقيدة لغير المسلمين ولذا كانت المعاهدة بين المسلمين واليهود، كتب بها رسول الله ﷺ كتابا ليواعد فيه اليهود ويقرهم على دينهم وسوف نذكر منه جزءا يسيرا حتى لا نطيل على القارئ.

بسم الله الرحمن الرحيم " هذا كتاب من محمد النبى بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم [(١)] بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى (بمعنى الدية)، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف " وسمى الحبيب ﷺ كل القبائل كما سمى المهاجرين

---

(١) عانيهم: أى أسيرهم.

وبني عوف.. وباقى الكتاب على البر والتعاون والوقوف خلف رسول الله ﷺ والنصر للمظلوم وأن يثرب جميعها حرام وعلى النصر على من اعتدى على يثرب وعلى كل معروف وخير.

وبهذه المعاهدة أصبحت يثرب كلها دولة قوية لها رئيس كبير هو المصطفى ﷺ [(١)].

وتمت المؤاخاة بين كل أهل يثرب من مهاجرين وأنصار وآخى الحبيب ﷺ بين قطبى المدينة (الأوس والخزرج) وأصبحت المدينة كلها فى إخاء ومحبة وتعاون.

تحويل القبلة:

بعد بدء الهجرة بسبعة عشر شهرا رأى الله سبحانه وتعالى تقلب وجه الحبيب ﷺ فى السماء وهو دائم النظر فى اتجاه بلده مكة المكرمة (أم القرى) فأكرمه الله وحول القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، وقد صور لنا الله ذلك فى محكم آياته فقال تعالى:

{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} [البقرة: ١٤٤].

---

(١) ملخص من سيرة ابن هشام (ص ٤٤٤) جـ ٢.

فـرح الحبيـب المصـطفى ﷺ بتحويـل القبلـة إلـى المسـجد الحـرام والكعبـة المشـرفة وكـان ذلـك يـوم الاثنـين ١ شـعبان سـنة اثنـين مـن الهجرة الموافق ٢٨ من يناير سنة ٦٢٤ ميلادية [١].

الجهاد والكفاح:

ظـل المشـركون بمكـة يطـاردون الحبيـب ﷺ وصـحبه ومـن أسـلم معـه مـن أهـل يثـرب وكـم كـان حقـدهم علـى الحبيـب ﷺ والمسـلمين لفـرارهم بـدينهم مـن مكـة وأنهـم الآن آمنـون بالبعـد عـنهم، ولكـن عنـاد المشـركين لـم يتـرك المسـلمين فـى مـأمنهم إذ اتصـلوا بعبـد الله بـن أُبـى بـن سـلول زعـيم المنـافقين ليعينـهم علـى الحبيـب ﷺ وصـحبه مـن المسـلمين وهنـا أشـار الله سـبحانه وتعـالى بالقتـال حيـث أذن لهـم به فقال تعالى:

{أُذِنَ لِلَّـذِينَ يُقَـاتَلُونَ بِـأَنَّهُمْ ظُلِمُـوا وَإِنَّ اللَّـهَ عَلَـى نَصْـرِهِمْ لَقَـدِيرٌ * الَّـذِينَ أُخْرِجُـوا مِـن دِيَـارِهِم بِغَيْـرِ حَـقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُـوا رَبُّنَـا اللَّـهُ وَلَـوْلا دَفْـعُ اللَّـهِ النَّـاسَ بَعْضَـهُم بِـبَعْضٍ لَّهُـدِّمَتْ صَـوَامِعُ وَبِيَـعٌ وَصَـلَوَاتٌ وَمَسَـاجِدُ يُـذْكَرُ فِيهَـا اسْـمُ اللَّـهِ كَثِيـراً وَلَيَنصُـرَنَّ اللَّـهُ مَـن يَنصُـرُهُ إِنَّ اللَّـهَ لَقَـوِيٌّ عَزِيـزٌ} [الحج: ٣٩، ٤٠].

---

(١) التواريخ الهجرية (اللواء محمد مختار باشا).

ثم الأمر المباشر بالقتال حيث قال تعالى:

{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الأنفال: ٣٩].

وفى موضع آخر قال تعالى:

{كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: ٢١٦، ٢١].

وكذلك قوله تعالى:

{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ المَسْجِدِ الحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ * فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [البقرة: ١٩٠ - ١٩٢].

وعلـــى هــذا فقــد صـــدر الأمـــر الإلهـــى مـــن الله ســـبحانه وتعـــالى بالقتال.

* * *

-46-

السرايا والغزوات

السرايا:

بعد الأمر بالقتال فكر المصطفى ﷺ أن يبعث السرايا لتعترض قوافل قريش القادمة من مكة إلى الشام والعائدة من الشام إلى مكة دون الاشتباك معها ودون الاستيلاء على القوافل وإنما لبث الرعب فى قلوب اليهود وأن يعلم أهل الشرك قوة المسلمين، هذا من ناحية ومن الناحية الأخرى الاستطلاع عن أحوال قريش.

ويروى علماء السيرة العطرة لخير خلق الله كلهم ﷺ أن أول هذه السرايا كانت (بقيادة حمزة بن عبد المطلب) عم الحبيب ﷺ وعدد كبير من المهاجرين.

وتوالت السرايا بعد ذلك فكانت السرية الثانية بقيادة (عبيدة بن الحارث ابن المطلب) ثم سرية ثالثة بقيادة (سعد بن أبى وقاص) وتوالت السرايا سرية تلو الأخرى ليعرف أهل الشرك قوة المسلمين.

الغزوات:

غـزوة ودان: **كانـت أول غـزوة يخـرج بهـا الحبيـب صـلوات الله وسـلامه عليـه وهـى (غـزوة ودان) (وودان هـى منطقـة بـالقرب مـن الأبواء التى تقع بين مكة والمدينة).**

واعتـرض قوافـل قـريش فلـم يلـق مـنهم كيـدا. وعقـد فيهـا معاهـدة بينه وبين بنى ضمرة.

قـال ابـن إسـحاق: حتـى بلـغ ودان، وهـى غـزوة الأبـواء، يريـد قريشـا وبنـى ضـمرة بـن بكـر بـن عبـد منـاة بـن كنانـة، فوادعتـه فيهـا ضـمرة وكـان الـذى وادعـه مـنهم علـيهم مخشـى بـن عمـرو الضـمرى، وكـان سـيدهم فـى زمانـه ذلـك، ثـم رجـع رسـول الله ﷺ إلـى المدينـة ولـم يلق كيدا فأقام بها بقية صفر. وصدرا من شهر ربيع الأول.

قال ابن هشام: وهى أول غزوة غزاها (١).

غـزوة بـواط: **بعـد غـزوة (ودان) بشـهر خـرج المصـطفى ﷺ غازيـا علـى رأس مـائتين مـن المهـاجرين إلـى بـواط (منطقـة جبليـة مـن جبـال جهينـة وهـى بـالقرب مـن (ينبـع) بهـدف قطـع الطريـق علـى قـريش وعلـى عيرهـا، وبعـد ملاقـاة أهـل قـريش لـم يجـد مـنهم كيـدا فرجـع إلـى المدينـة ولـم يحـارب. وكـان ذلـك فـى ربيـع الأول سـنة اثنـين هجريـة**

---

(١) سيرة ابن هشام: ص ٥١٨، جـ ٢.

الموافق ٦٢٣ ميلادية.

غزوة ذى العُشيرة، غزوة سفوان:

سميت غزوة العُشيرة أو ذى العُشيرة وكانت فى جماد الأول سنة اثنين من الهجرة سنة ٦٢٣ فى آخر شهر أكتوبر ٦٢٣ ميلادية وخرج بها الحبيب ﷺ.

يقول الدكتور / محمد حسين هيكل فى باب خروج النبى بنفسه:

وخرج فى أكثر من مائتين من المسلمين حتى نزل العُشيرة من بطن ينبع فأقام بها جمادى الأولى وليالى من جمادى الآخرة من السنة الثانية من الهجرة (أكتوبر ٦٢٣ م) ينظر مرور قافلة من قريش على رأسها أبو سفيان ففاتته. وكسب من رحلته هذه أن وادع بنى مُدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة، وأنه ما كاد يرجع إلى المدينة ليقيم بها عشر ليال حتى أغار (كُرز بن جابر الفهرى)، من المتصلين بمكة وقريش، على إبل المدينة وأغنامها، فخرج النبى فى طلبه، واستعمل على المدينة (زيد بن حارثة)، وتابع مسيره حتى بلغ واديا يُقال له سفوان من ناحية بدر، وفاته (كُرز) فلم يدركه. وهذه هى التى يطلق عليها كتاب السيرة اسم (غزوة بدر الأولى) [(١)].

---

(١) حياة محمد (د. هيكل) ص ٢٥٦.

-4-

غزوة بدر الكبرى

الموقــع: واد يقــع بــين مكـــة والمدينـــة علـــى ٢٨ فرســـخا[١] مـــن المدينة[٢].

بعــد غــزوة العُشــيرة وانفــلات عيــر قــريش مــن رســول الله ﷺ أرســل رســولين مــن المســلمين ليســتطلعا خبــر القافلـــة التـــى علـــى رأســها أبــو ســفيان حتـــى وصـــلا إلـــى الروحـــاء [٣] - ومــر بهمــا أبــو ســفيان بالقافلـــة فأســرعا وأخبــرا رســول الله ﷺ وكانـــت العيـــر محملـــة بأموال كثيرة.

قــال ابــن إســحاق: ثــم إن رســول الله ســمع بــأبى ســفيان بــن حــرب مقــبلا مــن الشــام فـــى عيــر لقــريش عظيمـــة، فيهـــا أمـــوال لقــريش وتجـــاراتهم وفيهـــا ثلاثـــون رجـــلا مـــن قـــريش أو أربعـــون، مـــنهم مخرمـــة بـــن نوفـــل بـــن أهيـــب بـــن عبـــد منـــاف بـــن زهـــرة وعمـــرو بـــن العاص بن وائل بن هشام [٤].

رأى رســـول الله ﷺ أن يقـــف مـــع الـــوثنيين وأهـــل قـــريش موقـــف

---

(١) فرسخ: مقياس قديم الطول يقدر بثلاثة أميال والميل يقدر بما يساوى ١٦٠٩ متر.

(٢) المعجم الوجيز (مجمع اللغة العربية د. شوقى ضيف).

(٣) الروحاء: منطقة على بعد ميلا من المدينة المنورة.

(٤) سيرة ابن هشام جـ ٢، ص ٥٣٠.

القوى فلا يسمح لتجارتهم تمر من أرض المدينة وكفاه ما انفلت من عير قريش من قبل.

بعد علم رسول الله بقدوم القافلة من الشام والمتجهة إلى مكة مرورا بالمدينة، وكانت محملة بأموال كثيرة، وكانت فرصة كبيرة لعل الله أن يجعلها غنيمة للمسلمين.

ثم نادى رسول الله ﷺ فى المسلمين للخروج إلى القافلة.

قال ابن إسحاق: (عن من حدثوه) قالوا: لما سمع رسول الله ﷺ بأبى سفيان مقبلا من الشام، ندب المسلمين إليهم وقال: " هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموه " فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربا، وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار ويسأل من لقى من الركبان تخوفا على أمر الناس. حتى أصاب خبرا من بعض الركبان: أن محمدا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك فحذر عند ذلك. فاستأجر (ضمضم بن عمرو الغفارى)، فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتى قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمدا قد عرض لهم فى أصحابه فخرج ضمضم بن عمرو سريعا إلى مكة [١].

---

(١) سيرة ابن هشام: (جـ ٢، ص ٥٣٠).

خــرج الحبيــب ﷺ علــى رأس أكثــر مــن ثــلاث مائــة رجـل مــن المســلمين مــن أتباعـــه وأنصـــاره ومـــن المهـــاجرين ومـــن الأوس والخــزرج (وكــان ذلـك فــى يــوم الأحــد ثمانيــة مــن رمضــان ســنة ٢ هجريـــة الموافــق أربعـــة مــن مــارس ســنة ٦٢٤ ميلاديـــة) [١] ولــم يخــرج كـل المســلمين بالمدينــة، وقـد تـرك رسـول الله ﷺ (عمـرو بـن أم مكتوم) للصلاة بالناس فى المدينة.

وكــان مــع المســلمين ســبعون بعيــرا فقــط فكــانوا يتعاقبونهــا فيمــا بينهم أى يتناوبون فى ركوبها واحدا بعد الآخر.

قـــال ابـــن إســـحاق: وكانـــت إبـــل أصـــحاب رســـول الله ﷺ يومئـــذ ســـبعين بعيـــرا، فاعتقبوهـــا، فكـــان رســـول الله ﷺ، وعلـــى بـــن أبـــى طالــب، ومرثـد بـن أبــى مرثـد الغنـوى يعتقبـون بعيــرا، وكــان حمــزة بـــن عبـــد المطلـــب، وزيـــد بـــن حارثـــة، وأبـــو كبشـــة، أنســـة موليـــا رسـول ﷺ يعتقبـون بعيـرا، وكـان أبـو بكـر، عمـر، عبـد الـرحمن بـن عوف يعتقبون بعيرا [٢].

وكـــان مقابـــل خـــروج الحبيـــب ﷺ وصـــحبه خـــروج الـــوثنيين مـــن أهـل مكـة، فخـرج جميـع أشـراف قـريش إلا (أبـا لهـب) الـذى اسـتأجر (العاصــى بــن هشــام بــن المغيــرة) بالمــال ليخــرج للحــرب بــدلا منــه،

---

(١) حساب التواريخ بالمطابقة على التواريخ الهجرية (محمد مختار باشا).

(٢) سيرة ابن هشام: جـ ٢، ص ٥٣٥.

وكان عددهم حوالى تسعمائة وخمسين رجلا وأكثر من سبعمائة بعير ومائتى فرس وكثير من الماشية.

سار جيش المسلمين بقيادة الحبيب ﷺ متجها صوب بدر حتى إذا بلغوا وادى يسمى (زفران) (وهو وادى بالقرب من المدينة) سمع رسول الله ﷺ بخروج جيش مكة لنجدة القافلة فأرسل على بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص للاستطلاع عن خبر قريش وجيشهم فأمسكوا بغلامين من أهل قريش وأتوا بها إلى الحبيب ﷺ فسألهما عن عدد الجيش فلم يستطيعا أن يحددا العدد فسألهما الحبيب ﷺ كم ينحرون من الإبل يوميا فأجابا بأن الذبائح تتراوح بين تسع وعشر إبل فى اليوم فهنا عرف الحبيب أن العدد ما بين التسعمائة وألف من المشركين وأن على رأس هذا الجيش أشراف قريش وساداتها أمثال عقبة بن ربيعة، أخوه شيبة، وحكيم بن خزام، ونوفل بن خويلد، الحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدى، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، علق النبى ﷺ قائلا لأصحابه: " هذه مكة قد ألقت عليكم أفلاذ كبدها " [١].

---

(١) تاريخ الدولة العربية: أ. د السيد عبد العزيز سالم.

أحس الحبيب ﷺ بأن الموقف أصبح حرجا وأن عدد المسلمين قليل بالنسبة لعدد جيش قريش فأبلغ أصحابه بما عرف وسألهم المشورة، فقام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امضى لما أمرك الله فنحن معك، والله لن نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون.

ثم أراد أن يسمع رأى الأنصار فقال ﷺ : **«أشيروا علىّ أيها الناس»** فأحس الأنصار أن رسول الله ﷺ يقصدهم فقام سعد بن معاذ وقال: " لكأنك تريدنا يا رسول الله؟، فقال: **«أجل»**، قال سعد: " لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض لما أردت فنحن معك فوالله الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا: إنا لصبر فى الحرب صدق فى اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله ".

وصل جيش المسلمين إلى بدر وعسكروا هناك وبنوا حوضا ملؤوه بالماء ليشربوا منه أثناء القتال.

علم أبو سفيان بخروج المصطفى ﷺ بجيش المسلمين للقائه واعتراض قافلته فقام بتغيير خط سير القافلة وأسرع فى سيره حتى بعد عن جيش المسلمين.

انقسم الكفار فى رأيهم بخصوص الحرب والعودة فمنهم من قال: نعود إلى مكة ومنهم من أصر على البقاء للحرب وقال أبو جهل وهو حينذاك زعيم من أرادوا قتال رسول الله ﷺ: والله لا نرجع حتى نرد بدرا، فنقيم عليه ثلاثة: تنحر الجذور، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها.

وأثناء سير المشركين متجهين إلى بدر أنزل الله مطرا شديدا، فكان هذا المطر جندا من جنود الله وكان وبالا على المشركين ومنعهم من التقدم.

قال الإمام ابن القيم الجوزية رحمة الله عليه: فأنزل الله عز وجل فى تلك الليلة مطرا واحدا، فكان على المشركين وبالا شديدا منعهم من التقدم، وكان على المسلمين طلا [١] طهرهم به، وأذهب عنهم رجس الشيطان، ووطأ به الأرض، وصلب به الرمل، وثبت الأقدام، ومهد به المنزل، وربط به على قلوبهم، فسبق رسول الله ﷺ وأصحابه إلى الماء،

---

(١) الطل: المطر الخفيف، يكون له أثر قليل. وهنا بمعنى أن المطر كان شديدا على المشركين خفيفا على المسلمين (المعجم الوجيز).

فنزلوا عليه شطر الليل، وصنعوا الحياض، ثم غوروا ما عداها من الماء، ونزل رسول الله ﷺ وأصحابه على الحياض [١].

بناء العريش:

وبُنى لرسول الله ﷺ عريش يكون فيها على تل يشرف على المعركة، ومشى فى موضع المعركة، وجعل يشير بيده، هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان إن شاء الله، فما تعدى أحد منهم موضع إشارته[٢].

دعاء النبى ﷺ :

قال ابن القيم رحمة الله عليه فى زاد المعاد:

فلما طلع المشركون، وتراءى الجمعان، قال رسول الله ﷺ: **«اللهم هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها، جاءت تحادك، وتكذب رسولك»** وقام ورفع يديه، واستنصر ربه وقال: **«اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك»** فالتزمه الصديق من ورائه وقال: يا رسول الله ﷺ أبشر، فوالذى نفسى بيده، لينجزن الله ما وعدك.

نزل القائد المعلم رسول الله ﷺ إلى الميدان يتفقد أحوال

---

(١) زاد المعاد لابن القيم: جـ ٣، ص ٦٩.

(٢) نفس المصدر السابق.

المسلمين، وبدأ الحبيب ﷺ يصف أصحابه قبل أن يتلاحموا من جيش قريش وجعل الراية فى يد مصعب بن عمير وكانت هذه الراية (اللواء) هى راية المهاجرين وكانت هناك رايتان أو لواءان آخران أحدهما بيد الحباب بن المنذر عن الخزرج والثانى بيد سعد بن معاذ عن الأوس.

ثم بدأت المعركة ببعض الاشتباكات الصغيرة وذلك فى السابع عشر من رمضان سنة اثنين من الهجرة وكان ذلك يوافق يوم الثلاثاء الثالث عشر من مارس سنة ٦٢٤ ميلادية بتوفيق الحسابات الإفرنجية مع الهجرية كما جاء عن اللواء محمد مختار باشا فى التواريخ الهجرية.

مدد الملائكة:

واستنصر المسلمون بالله، واستغاثوه، وأخلصوا له، وتضرعوا إليه، فأوحى الله إلى ملائكته:

{أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ} وأوحى الله إلى رسوله ﷺ :

{أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ المَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ}[١].

---

(١) زاد المعاد: لابن القيم جـ ٣، ص ٠.

لقد أحس المسلمون بقلة عددهم أمام جيش قريش الذى فاق تسعمائة مقاتل من أهل الشرك والكفر فاستغاثوا الله وطلبوا منه المدد وهم بصدق نيتهم استجاب لهم الله وهذا ما صورته لنا الآيات. قال تعالى:

{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ المَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [الأنفال: ٩].

وأمر الله سبحانه وتعالى الملائكة بالحرب مع المسلمين ونصرتهم وقد صور لنا ذلك فى آياته أيضا فقال تعالى:

{إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى المَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [الأنفال: ١٢].

والتقى جيش المسلمين بقيادة الحبيب ﷺ ضد أهل الكفر فأذاقوهم هزيمة نكراء وشر هزيمة.

وكان نصر المسلمين له عدة أسباب هى:

١ - مد الله بملائكته والتزام المسلمين بتعاليم دينهم وصدقهم وطاعتهم لسيدنا رسول الله ﷺ.

٢ - العقيدة الراسخة فى قلوب المسلمين وطلب إحدى

الحسنين من الله سبحانه وتعالى وهى: النصر أو الشهادة.

٣ - القيادة:

فمن القائد؟.. إنه خير خلق الله كلهم هو قائد كل المسلمين فمن بعد رسول الله ﷺ قائدا؟

٤ - المعنويات التى كانت بين أفراد المسلمين.

وكان النصر من عند الله العزيز القدير.

قال تعالى:

{وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [آل عمران: ١٢٣].

وفى هذه المعركة الكبرى قُتل أبو جهل (عمرو بن هشام) قتله عبد الله بن مسعود وعدد كبير من المشركين وصل إلى سبعين قتيلا وسبعين أسيرا.

غزوة بنى قينقاع:

لم يكف المشركون عن التحرش بالمسلمين والوقيعة بين الناس ويروى ابن هشام ما كان أمر بنى قينقاع، وعن سوء نيتهم واستباحة كل شىء، وما كان من أمرهم، وعن السبب فى الحرب التى نشبت بين المسلمين وبنى قينقاع: قال ابن هشام: (عن من

حدثوه): كان من أمر بنى قينقاع أن امرأة من العرب قد قدمت بجلب [١] لها فباعته بسوق بنى قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديا، وشدت اليهود على المسلم، فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع [٢].

ثم غزا بنى قينقاع، وكانوا من يهود المدينة، فنقضوا عهده، فحاصرهم خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حُكمه، فشفع فيهم عبد الله بن أبى، وألح عليه، فأطلقهم له، وهم قوم عبد الله بن سلام، وكانوا سبعمائة مقاتل وكانوا صاغة وتجارا [٣].

وعلى حساب اللواء محمد مختار باشا فى التواريخ الهجرية كان ذلك فى شهر صفر سنة ٣ هجرية الموافق يوليه سنة ٦٢٤ ميلادية.

---

(١) الجلب: (البضائع التى تُحضر فى الأسواق للبيع).

(٢) سيرة ابن هشام: جـ ٢، ص ٦٤٥.

(٣) زاد المعاد: جـ ٣، ص ٨٤.

غزوة السويق:

يقــول الإمــام ابــن قــيم الجوزيـــة رحمـــه الله: ولمــا رجــع فــل المشــركين مــن مكــة موتــورين، محــزونين، نــذر أبــو ســفيان أن لا يمــس رأســه مــاء حتــى يغــزو رســول الله ﷺ، فخــرج فــى مــائتى راكــب، حتــى أتــى العُــريض فــى طــرف المدينــة، وبــات ليلــة واحــدة عنــد ســلام بــن مشــكم اليهــودى، فسـقاه الخمــر، وبطــن لـــه مــن خبــر النــاس، فلمــا أصــبح، قطــع أصــوارا [1] مــن النخــل، وقتــل رجــلا مــن الأنصـــار، وحليفـــا لــــه، ثــم كــر، ثــم وزعــت الغنـــائم وافتــدى بعــض الأســـرى نفســـهم بالمـــال، وظفـــر المســـلمون بقيـــادة رســـول الله ﷺ بالنصـــر وبشـــهادة أربعـــة عشـــر رجـــلا مـــن المســـلمين (ســـتة مـــن المهاجرين، وثمانية من الأنصار).

وبعــد نصــرة المســلمين وقــف رســول الله ﷺ علـــى قتلـــى قــريش وقال لهم بئس العشيرة.

---

(١) الأصوار (جمع صور، وهو النخل الصغير).

قال الإمام ابن القيم:

ولمـا انقضـت الحـرب، أقبـل رسـول الله ﷺ حتـى وقـف علـى القتلـى فقـال: «**بـئس عشـيرة النبـى كنـتم لنبـيكم، كـذبتمونى، وصـدقنى النـاس، وخـذلتمونى ونصـرنى النـاس، وأخرجتمـونى وآوانـى النـاس**» ثـم أمـر بهم فسُحبوا إلى قليب من قُلب بدر، فطُرحوا فيه [١].

وأسـدل السـتار علـى غـزوة بـدر الكبـرى وأقـدم عُـذرى للإطالـة فـى هـذا البـاب لأن غـزوة بـدر مـن أكبـر الغـزوات وهـى نقطـة تحـول للمسلمين وبيان قوتهم فأرجو قبول المعذرة.

* * *

---

(١) زاد المعاد (ابن القيم) جـ ٣، ص ٨٠.

-48-

غزوات صغيرة قبل أحد

غزوة بنى سليم:

بعدما حقق المسلمون نصرا عزيزا فى بدر بعون الله وقدرته ومدده، أراد الحبيب ﷺ غزو (بنى سليم) وهى قبيلة كبيرة فى الطريق ما بين الشام ومكة، فغزا بنى سليم ولم يلق منهم كيدا ولا مقاومة فعاد حيث أتى.

قال ابن إسحاق: فلما قدم [١] رسول الله ﷺ لم يقم بها إلا سبع ليال حتى غزا بنفسه، ويريد بنى سليم.

وقال أيضا: فبلغ ماء من مياههم، يقال له: الكدر، فأقام عليه ثلاث ليال ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق كيدا، فأقام بها بقية شوال وذا القعدة وأفدى فى إقامته تلك [٢] راجعا، ونذر به رسول الله ﷺ، فخرج فى طلبه، فبلغ قرقرة الكدر، وفاته أبو سفيان وطرح الكفار سويقا كثيرا من أزوادهم يتخففون به، فأخذها المسلمون، فسميت غزوة السويق، وكان ذلك بعد بدر بشهرين [٣].

---

(١) المقصود هنا قدومه ﷺ للمدينة.

(٢) سيرة ابن هشام: جـ ٢، ص ٦٤٢.

(٣) زاد المعاد: جـ ٣، ص ٨١.

غزوة ذى أمر:

فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة بقية ذى الحجة، ثم غزا نجد يريد غطفان، واستعمل على المدينة عثمان بن عفان ؓ فأقام هناك صفرا كله فى السنة الثالثة، ثم انصرف ولم يلق حربا [١].

وفى الفترة ما بين غزوة بدر الكبر وغزوة أحد غزوات صغيرة لم يلق بها الحبيب ﷺ كيدا فلم يحارب وعلت كلمة الإسلام وأعز الله دينه وأيد حبيبه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه.

وقد اختصرت فى هذه الغزوات كما ذكرت لصغرها ولأن رسول الله ﷺ لم يلق بها كيدا.

ولكى نسوق إليك غزوة من أهم الغزوات فى حياة المسلمين ألا وهى غزوة أحد.

* * *

---

(١) نفس المصدر السابق.

-49-

غزوة أحد

هذه الغزوة التى أرجع تاريخها اللواء / محمد مختار باشا فى كتابه التواريخ الهجرية إلى السابع من شوال سنة ثلاثة من الهجرة والذى يوافق السبت الثالث والعشرون من مارس سنة ٦٢٥ ميلادية.

لقد ملأ الغل والحقد صدور الكفار والمشركين من أهل قريش بعد هزيمتهم ببدر وخاصة أن المسلمين نصرهم الله نصرا عزيزا أذلوا به عظماء قريش وأشرافها ورموزها الكبرى، وقتل كبرائها من أمثال أبى جهل بن هشام وغيره. ففكروا فى الانتقام من المسلمين ومن سيد الخلق محمد ﷺ، فأعدوا عدتهم وجهزوا أنفسهم لحرب ضارية يمحون به عار هزيمتهم وفرض السيادة مرة أخرى، فكانوا يتحالفون مع كل القبائل المحيطة للحرب على محمد ﷺ وصحبه من المسلمين، وكانوا يثيرون القبائل بحجة بوار تجارتهم وفقد نفوذهم.

فى الفترة ما بين غزوة بدر الكبرى وغزوة أحد كانت الغزوات الصغيرة والسرايا التى يقوم بها المسلمون على قوافل قريش، كانت تهدد كل مصالحهم وفى نفس الوقت كانت قريش

تعد الجيش والعدة والعتاد والتعبئة العامة لقتال المسلمين.

وبعد إعداد الجيش وكل شيء خرجت قريش.

يقول ابن هشام رحمه الله:

فخرجت قريش بحدها وجدها وحديدها وأحابيشها [١]، ومن تابعها من بني كنانة، وأهل تهامة وخرجوا بالظُعن [٢] التماس الحفيظة، وألا يغروا فخرج أبو سفيان بن حرب، وهو قائد الناس، بهند بنت عتبة وخرج عكرمة ابن أبي جهل بأم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وخرج صفوان بن أمية ببرزة بنت مسعود بن عمرو بن عمير الثقفية، وهي أم عبد الله بن صفوان بن أمية[٣]. قال ابن هشام ويقال رقية.

المشورة:

لما علم رسول الله ﷺ بخروج جيش قريش استشار أصحابه في الخروج لملاقاة جيش قريش أم يبقى بالمدينة متحصنا بها وكان رأيه ﷺ أن يبقوا بالمدينة متحصنين بها، وكان من الذين وافقوه على ذلك عبد الله بن أبي بن سلول، ولكن الذين لم

---

(١) الأحابيش: " من اجتمع إلى العرب وانضم إليهم من غيرهم ".

(٢) الظعن: (النساء في الهوادج).

(٣) سيرة ابن هشام: جـ ٣، ص ٤.

يخرجوا فى بدر أشاروا على الحبيب ﷺ بالخروج، وقال آخرون: يا رسول الله إن أحببت أن تمكث فافعل، قال رسول الله ﷺ: **«ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه»** [١].

خرج الحبيب ﷺ بجيشه من المسلمين وكان تعداده قرابة الألف متجها إلى جيش قريش عند جبل أحد، وقد ترك على المدينة الصحابى الجليل عبد الله ابن أم مكتوم إماما للناس بالمدينة يصلى بهم ويرعى شؤون المسلمين، وأعطى اللواء لمصعب بن عمير رضى الله عنهم أجمعين.

قد أشرنا إلى أن المصطفى ﷺ عندما استشار أصحابه فى الخروج للقتال قال له عبد الله بن أبى بن سلول: تظل هنا المدينة يا رسول الله وهو (ابن سلول) رأس النفاق، فلما خرج المصطفى ﷺ حاول ابن سلول أن يزعزع صفوف الجيش ويفككه ويبث فيهم سُمه لينهزم جيش المسلمين، وقد علق على هذه القصة أبى محمد بن عبد الملك بن هشام فقال:

قال ابن إسحاق: حتى إذا كانوا بالشوط [٢] بين المدينة وأُحد، انخذل عنه عبد الله بن أبى بن سلول بثلث الناس، وقال: أطاعهم

---

(١) زاد المعاد: جـ ٣، ص ٨.

(٢) الشوط (اسم بستان بالمدينة).

وعصانى، ما ندرى علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حزام، أخو بنى سلمة، يقول: يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم: فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال. قال فلما استعصوا عليه وأبو إلا الانصراف عنهم، قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغنى الله عنكم نبيه [(١)].

وسار الحبيب ﷺ بجيشه حتى وصل إلى الجبل (جبل أُحد) يوم الجمعة ٦ من شوال، ونهى الناس عن القتال حتى يأذن لهم، وأصبح جند رسول الله ﷺ حوالى سبعمائة رجل من المسلمين بعد تراجع ابن سلول ومن معه من المنافقين وفى صبيحة يوم السبت السابع من شوال سنة ٣ هجرية أمر الحبيب ﷺ جيشه بأن يدفعوا بنبالهم على خيل العدو حتى لا يأتوهم من الخلف، ودفع اللوء إلى مصعب بن عمير.

أما جيش الكفر فقد تعبأ بجنده وعدته وعتاده فى ثلاثة آلاف رجل؛ قال ابن إسحاق: تعبأت قريش، وهم ثلاثة آلاف رجل، ومعهم مائتا فرس قد جنبوها [(٢)] فجعلوا على ميمنة الخيل خالد

---

(١) سيرة ابن هشام، جـ ٣، ص .

(٢) جنوبها (أى جعلوها بجوارهم كبدل احتياطى للفرس الذى يقتل أو يتعب).

بن الوليد، وعلى مسيرتها عكرمة ابن أبى جهل [١].

وكانت كلمة السر فى الغزوة للمسلمين أِمت.. أمت.

وأما من أمر هند بنت عتبة فظلت تُحرض النساء على رسول الله ﷺ وتقول الشعر تحفيزا على الحرب.

وقد استشهد حمزة بن عبد المطلب فى هذه الغزوة، قتله وحشى مولى جبير بن مطعم.

لقد أبلى المسلمون بلاء حسنا فى القتال ومنهم على سبيل المثال لا الحصر أبو دجانة، وطلحة بن عبيد الله، وأسد الله حمزة بن عبد المطلب (قبل استشهاده) وعلى بن أبى طالب، وأنس بن النضر، وسعد بن الربيع، وغيرهم كثير من المسلمين، حتى هزموا فلول الكفر والشرك وذهبوا إلى نسائهم مدبرين، وكان رسول الله ﷺ أمر المسلمين بأن لا يتركوا مواقعهم ومراكزهم على الجبل.

يقول الإمام ابن القيم الجوزية رحمة الله عليه:

وكانت الدولة فى أول النهار للمسلمين على الكفار، فانهزم عدو الله وولوا مدبرين حتى انتهوا إلى نسائهم، فلما رأى الرماة هزيمتهم، تركوا مركزهم الذى أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه،

---

(١) سيرة ابن هشام: جـ ٣، ص ٩.

وقــالوا: يــا قــوم الغنيمــة فــذكرهم أميــرهم عهــد رســول الله ﷺ فلــم يســمعوا، وظنــوا أن لــيس للمشــركين رجعــة، فــذهبوا فــى طلــب الغنيمة، وأخلوا الثغر [١].

بعد انهـزام قـريش وتـرك الرمـاة مـن المسـلمين مـواقعهم وهـذا مـا خــالف أمــر الرســول ﷺ فــانتهز جــيش قــريش فرصــة إخــلاء الثغــر علـى الجبـل، وكـر المشـركون فوجـدوا الثغـر خاليـا حتـى وصـلوا إلـى موقــع الحبيــب ﷺ يريــدون قتلــه وجرحــوا رســول الله ﷺ فــى وجهــه وعن رواة السيرة: أن الكفار كسروا بعض أسنان الحبيب ﷺ.

يقــول الأســتاذ الــدكتور / الســيد عبــد العزيــز ســالم فــى كتابــه تاريخ الدولة العربية:

أمــا النبــى ﷺ فخــرج فــى ألــف مــن أصــحابه، ونــزل الشــعب مــن أحــد فــى عــدوة الــوادى وجعــل ظهــره إلــى جبــل أحــد ولمــا نشــب القتــال، أبلــى المســلمون بــلاء حســنا وقــاتلوا قتــالا شــديدا، حتــى انهزمــت قــريش، فــأيقن الرمــاة بانتصــار المســلمين، ونهضــوا يطلبــون الغنــائم تــاركين الرمــى علــى الأعــداء، فخــالفوا بــذلك مــا أمــرهم بــه الرســول، ثــم كــر المشــركون حتــى وصــلوا إلــى قــرب موضــع رســول الله ﷺ فقاتــل (مصــعب بــن عميــر) دونــه حتــى قُتــل،

---

(١) زاد المعاد: جـ ٣، ص ٩٠.

وجُـرح رسـول الله ﷺ فـى وجهـه الكـريم، وكُسـرت إحـدى أسـنانه العليـا والسـفلى ممـا يلـى الثنايـا بحجـر فتـولى (علـى بـن أبـى طالـب) حمـل الرايـة بعـد استشـهاد مصـعب، وانهالـت الأحجـار علـى رسـول الله ﷺ حتـى سـقط فـى حفـرة كـان قـد حفرهـا أبـو عـامر الأوسـى مكيـدة للمسـلمين، ثـم نهـض مـن كبوتـه ولحـق بـه المشـركون، فـدافع عنـه نفـر مـن المسـلمين عـددهم سـبعة قُتلـوا جميعـا، ثـم قاتـل طلحـة، وقاتلـت أم عمـارة (نسـيبة بنـت كعـب المازنيـة) دفاعـا عـن النبـى ﷺ وجُرحـت جراحـات كثيـرة وتـرس أبـو دجانـة عـن رسـول الله ﷺ بظهـره والنبـال تتسـاقط عليـه وهـو لا يتحـرك، وجعـل رسـول الله ﷺ يـذمر النـاس ويحـثهم علـى القتـال، وباشـر بنفسـه القتـال، فرمـى بالنبل حتى نفذت نباله.

وأسـفرت المعركـة عـن هزيمـة المسـلمين، وقتـل مـنهم فيهـا ٤ مـن بينـهم سـبعون مـن الأنصـار، قتـل أربعـة مـن قـريش مـنهم حمـزة بـن عبـد المطلـب وعبد الله بن جحش [١].

ويستطرد الدكتور السيد عبد العزيز سالم قائلا:

وأسـرفت قـريش فـى إظهـار حقـدها علـى المسـلمين فمثلـت بقـتلاهم، وجـذعت الأنـوف وقطعـت الآذان، وبلـغ الحقـد بهنـد بنـت

---

(١) تاريخ الدولة العربية ص ١٢٣ (عن الواقدى ص ٣٠٠).

عتبة على حمزة بن عبد المطلب درجة لا مثيل لها من الغلو الجنونى، فعهدت بقتله إلى وحشى عبد ابنه الحارث بن عامر بن نوفل، بعد أن وعدته بمكافأة مجزية، فلما قتله وحشى شق بطنه وأخرج كبده وجاء به إلى هند، فمضغته ثم لفظته، ومضت إلى جثته فقطعت أذنيه وجذعت أنفه (١).

الرسول ﷺ يصلى على شهداء أحد:

قال ابن إسحاق: وحدثنى من لا أتهم عن مقسم، مولى عبد الله بن الحارث عن ابن عباس. قال: أمر رسول الله ﷺ بحمزة فُسجى(٢) ببرده الأخضر ثم صلى عليه، فكبر سبع تكبيرات، ثم أتى بالقتلى فيوضعون إلى حمزة، فصلى عليهم وعليه معهم، حتى صلى عليه ثنتين وسبعين صلاة (٣).

وأسدل الستار على غزوة أحد وكان جزاء المسلمين فيها الشهادة وهم عند الله أحياء يرزقون. قال تعالى:

{وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران: ١٦٩].

* * *

---

(١) نفس المصدر السابق ص ١٢٤ (عن الواقدى ص ٢٨٦).

(٢) سجى: غطى.

(٣) سيرة ابن هشام: جـ ٣، ص ٣.

-50-

سرايا ما بعد أحد

بعد معركة أُحد عاد أبو سفيان إلى مكة مسرورا بما حققه الجيش المكى، وسبق أبو سفيان أخبارهم، وأنهم أزالوا عار بدر.

أما الحبيب ﷺ فكان حزينا لما حدث، ويحس بحرج الموقف الذى وصل إليه جيش المسلمين، لذا كان يحرص على سماع أخبار العرب حتى يتمكن من أن يعيد مكانة المسلمين وهيبتهم وسط العرب.

سرية أبى سلمة:

وكان مما وصل الرسول ﷺ أن طليحة بن خويلد وأخوه سلمة وهم زعماء قبيلة بنى أسد يعبئان جيشا يريدون به مهاجمة الحبيب ﷺ فى المدينة، فأمر رسول الله ﷺ بأن يخرج أبى سلمة بن عبد الأسد على رأس سرية مكونة من ١٥٠ رجل، كان منهم على سبيل المثال: سعد بن أبى وقاص، وأبو عبيدة بن الجراح، وأُسيد بن حضير، وأمرهم الرسول ﷺ بأن يسلكوا طريقا غير معروف وغير متوقع ليفاجؤوا به العدو، وبالفعل تم مهاجمة الجيش المكى بغتة وأصابوا منهم الغنيمة وعادوا إلى المدينة منتصرين ظافرين مما أعاد بعض الثقة فى نفوس المسلمين.

إرسال عبد الله بن أنيس:

بعد سرية أبى سلمة فكر خالد بن سفيان الهذلى أن يعد جيشا لحرب المسلمين فبعث إليه رسول الله ﷺ عبد الله بن أنيس ليقتله ويخلص المسلمين من شره، وذهب ابن أنيس حتى لقى خالد بن سفيان وسأله من أنت؟ قال ابن أنيس: أنا رجل من العرب سمعت بشجاعتك وبجمعك لمحمد فجئتك ظن خالد أنه أتى ليشد من أزره وليعينه على محمد، فاستدرجه عبد الله بن أنيس حتى أبعده عن الناس وقتله وعاد برأسه إلى رسول الله ﷺ.

ثم كانت هناك سرايا وغزوات صغيرة مثل موقعة (بئر معونة)، ثم غزوة (بنى نضير).

غزوة ذات الرقاع:

بعد أن اطمأن الحبيب ﷺ على موقف المسلمين بعد بعض السرايا التى أعادت الثقة فى نفوس المسلمين، وكان ﷺ دائم الحذر من أفعال المشركين واليهود لأنه يعلم غدرهم، وعلم رسول الله ﷺ بأن جماعة من غطفان بنجد وكذلك بنو ثعلبة من غطفان يجمعون له لحربه، فأعد الرسول جيشا قوامه أربعمائة رجل وخرج على رأس هذا الجيش ليفاجئ جيش غطفان هذا حتى نزل ذات الرقاع حيث وقعت الغزوة، وما إن رأى أهل

غطفان جيش الحبيب ﷺ بعدته هربوا وتفرقوا تاركين وراءهم متاعهم ونساءهم، وكتب الله النصر لرسوله والمؤمنين وعاد الحبيب ﷺ بجيشه بعد خمسة عشر يوما غانمين سالمين ظافرين.

ثم (غزوة دومة الجندل) وخرج فيها الحبيب بنفسه أيضا لغزو القبائل بين الحجاز والشام، وما إن سمعت به القبائل وبجيشه ولت هاربة وعاد المسلمون بالغنائم وقويت شوكة المسلمين وأهابها الجميع.

{وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ} [الأنفال: ١٠].

* * *

-51-

غزوة الخندق

(غزوة الأحزاب) :

بعد الغزوات والحروب التى خاضها المسلمون بقيادة معلم البشرية الأول وقائد القادة وخير خلق الله كلهم محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ظن المسلمون أنهم سوف يستريحون ويطمئون، وأنه قد انتهت الحروب ولكن هل هذا صحيح؟

لا. فبعد خروج بنى النضير من المدينة (وهى الغزوة التى لم نتعرض لها فى ذكر الغزوات السابقة لنأتى بجزء عنها هنا).

وتتلخص قصة بنو النضير فى أن الحبيب ﷺ ذهب فى نفر من أصحابه إليهم وهم من اليهود ليدعوهم للإسلام وحسن الجوار، ولكن اليهود هم اليهود، طبعهم نقض العهود والغدر، فأضمروا فى أنفسهم أن يلقوا صخرة على محمد ﷺ ليقتلوه، وأثناء سيره ﷺ إليهم علم بما عزموا عليه وما أضمرو بينهم، فأرسل إليهم (محمد بن مسلمة) أن اخرجوا من بلادى فلا تساكنونى.

وأصدر الحبيب قراره بإخلائهم من المدينة، فرفضوا الخروج وأشار عليهم ابن سلول بالحرب، فجهز رسول الله ﷺ

جيشا وحاصرهم فى المدينة حصارا لم يروه من قبل حتى أرسلوا إلى الحبيب ﷺ أنهم خارجون من المدينة، وخرجوا مدحورين إلى خيبر وذهب بعضهم إلى الشام.

يقول الإمام ابن القيم الجوزية رحمه الله عن سبب الغزوة:

وكان سبب غزوة الخندق أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين على المسلمين يوم أحد، وعلموا بميعاد أبى سفيان لغزو المسلمين، فخرج لذلك، ثم رجع للعام المقبل، خرج أشرافهم، كسلام بن أبى الحقيق، وسلام بن مشكم، وكنانة بن الربيع وغيرهم إلى قريش بمكة يحرضونهم على غزو رسول الله ﷺ ويؤلبونهم عليه، ووعدهم من أنفسهم بالنصر لهم، فأجابتهم قريش، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم، فاستحابوا لهم، ثم طافوا فى قبائل العرب، يدعونهم إلى ذلك، فاستجاب لهم من استجاب، فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان فى أربعة آلاف، ووافتهم بنو سليم بمر الظهران وخرجت بنو أسد، وفزارة، وأشجع، وبنو مرة، وجاءت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن، وكان من وافى الخندق من الكفار عشرة آلاف.

فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرتهم إليه، استشار أصحابه، فأشار عليه سلمان الفارسى بحفر خندق يحول بين العدو وبين

المدينة، فأمر به رسول الله ﷺ، فبادر إليه المسلمون، وعمل بنفسه فيه، وبادروا هجوم الكفار عليهم، وكان فى حفره من آيات نبوته، وأعلام رسالته ما قد تواتر الخبر به، وكان حفر الخندق أمام سلع، (وسلع: جبل خلف ظهور المسلمين، والخندق بينهم وبين الكفار).

وخرج رسول الله ﷺ فى ثلاثة آلاف من المسلمين، وتحصن بالجبل من خلفه، وبالخندق أمامهم [١].

وكان الحبيب ﷺ يحفر بنفسه فى الخندق مع المسلمين.

وقد ورد فى صحيح البخارى:

عن ابن إسحاق، قال: سمعت البراء يحدث، قال: " لما كان يوم الأحزاب، وخندق رسول الله ﷺ، رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنى الغبار جلدة بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحه، وهو ينقل من التراب يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ::: ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا ::: وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأُلى قد بغوا علينا ::: وإن أرادوا فتنة أبينا

قال: ثم يمد صوته بآخرها [٢].

---

(١) زاد المعاد (ابن القيم) جـ ٣، ص ١٦٨.

(٢) صحيح البخارى (جـ ٦ كتاب المغازى ص ٣٢٤ / ٣٦٠٢).

وكان الحبيب ﷺ يدعو بالنصر وبهزيمة الأحزاب، وكما جاء فى صحيح البخارى: عن عبد الله بن أبى أوفى، رضى الله عنهما - يقول: " دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب، فقال: اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم"(١).

وكان حفر الخندق فكرة طرحها سلمان الفارسى رضي الله عنه لخبرة الفرس فى هذه الحيل والمكايد.

وزحف الجيش الوثنى قاصدا المسلمين بأحد للحرب.

يقول الدكتور / محمد حسين هيكل: وأقبلت قريش وأحزابها وهى ترجو أن تلقى محمد بأحد، فلم تجد عنده أحدا، فجاوزته إلى المدينة حتى فاجأها الخندق، فعجبت أن لم تكن تتوقع هذا النوع من الدفاع المجهول لها، وبلغ منها الغيظ حتى زعمت أن الاحتماء وراءه جبن لا عهد للعرب به، وعسكرت قريش ومن تابعها بمجتمع الأسيال من رومة، وعسكرت غطفان ومن اتبعها من أهل نجد، أما محمد فخرج فى ثلاثة آلاف من المسلمين فجعل ظهره إلى هضبة سلع، وجعل الخندق بينه وبين أعدائه، وهناك ضرب عسكره ونصبت له خيمته الحمراء، ورأت قريش

---

(١) صحيح البخارى (جـ ٦ كتاب المغازى ص ٣٢٨ / ٣٦١٠).

والعــرب معهــا أن لا ســبيل إلـــى اجتيـــاز الخنـــدق فاكتفــت بتبـــادل الترامى بالنبال عدة أيام متتابعة [(١)].

وظـــل حصــــار المشــــركين للمســــلمين يحـــاولون اقتحـــام الخنـــدق بـأى شكل، وظلـوا يحومـون حولـه حتـى استضـعفوا مكـان ضـيقا فيـه فـــاقتحموه بخـــيلهم، ودعـــوا للمبـــارزة مـــع المســـلمين وكـــانوا عـــددا كبيـرا، مـنهم عمـرو بـن عبـد ود، وعكرمـة بـن أبـى جهـل، وضـرار بـن الخطـاب، فلمـا دعـوا للمبـارزة خـرج لهـم فتـى الفتيـان (علـى بـن أبــى طالــب) رضـــى الله عنـــه وبـــارز عمـــرو بـــن ود فقتلـــه علـــى ابـــن أبى طالب، ففر الباقون هربا.

طـــال الحصـــار وبـــدأت صـــفوف المشـــركين تتزعـــزع، وخـــاف حيـــى بـــن أخطـــب (وهـــو مـــن كبـــراء بنـــى النضـــير) مـــن زعزعـــة صـــفوفهم ففكـــر فـــى بنـــى قريظـــة، وذهـــب إلـــيهم لينقضـــوا عهـــدهم مـــع محمــد ﷺ، وعلــم رســول الله ﷺ بمــا حــدث ونقــض بنــى قريظــة العهــد ففكر فى زعزعة صفوفهم وتمزيقهم من الداخل.

كـان (نعيم بـن مسـعود بـن عـامر) وهـو مـن غطفـان قـد أسـلم سـرا بـين يـدى رسـول الله ﷺ وكـان محبوبـا بـين العـرب ولـه كلمـة نافـذة وخبـرة وصـاحب رأى ومشـورة، ومـن هنـا طلـب منـه رسـول الله ﷺ أن يخـادع

---

(١) حياة محمد (د. محمد حسين هيكل) ص ٣٤١.

الأحزاب بينهم وهى الحرب.

يقول د. السيد عبد العزيز سالم فى تاريخ الدولة العربية:

ولما اشتدت الحال بسبب طول أمد الحصار، وبسبب الخوف من بنى قريظة، رأى النبى ﷺ أن يصطنع الحيلة فى تمزيق الحلف بين قريش وأحابيشها وغطفان واليهود وكان قد قدم إليه (نعيم بن مسعود بن عامر من غطفان) وكان من دعاة العرب، وأعلن إسلامه سرا دون علم قومه، فطلب منه النبى أن يخذل عن المسلمين إن أمكنه ذلك وقال له: " إنما أنت فينا رجل واحد، فاخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة، فمضى نعيم إلى بنى قريظة وكان ينادمهم فى الجاهلية، فنصحهم بألا يقاتلوا مع قريش وغطفان حتى يأخذوا منهم رهنا [(١)]، لأن المدينة ليست بلدهم وأن بإمكانهم الرجوع إلى بلدهم متى شاؤوا، ويتركونهم بعد ذلك تحت رحمة المسلمين، فأعجبهم رأيه وأخذوا به، ثم نهض نعيم إلى قريش وقال لأبى سفيان: " قد عرفتم صداقتى لكم، وبلغنى أمر لزمنى أن أعرفكموه، فاكتموا عنى، قالوا: وما هو؟ قال: اعلموا أن اليهود قد ندموا على ما فسخوا من عهد محمد، وقد أرسلوا إليه أن يأخذوا منكم رهنا يدفعونه إلى محمد، ويرجعون

---

(١) الرهن: كما قالوا من ساد قريش وفتيانها.

معه عليكم "، فاقتنع أبو سفيان، وأيقن بصدقه وشكره على تطوعه بإبلاغهم هذا السر، ثم مضى إلى غطفان فقال لهم ما قاله لقريش (أبو سفيان)، ثم أرسل أبو سفيان وغطفان إلى بنى قريظة فى ليلة السبت من شوال يطلب منهم أن يخرجوا فى الغد للقتال، فأرسل إليهم اليهود رسولا يطلب منهم إرجاء القتال يوم السبت ويشترطوا عليهم أن يقدموا إليهم رهنا، فردوا إليهم الرسول، وامتنعوا عن إعطائهم الرهن، وعندئذ تبين لبنى قريظة صدق ما قاله نعيم، كما تبين لقريش وغطفان صدق ما قال نعيم أيضا فأبوا القتال [١].

ثم أرسل الله تعالى جل شأنه جنوده لنصرة المسلمين وانهزم الأحزاب إذ سلط عليهم ريحا تقتلع كل شىء وزلزل الله بملائكته صفوف الأحزاب وألقوا فى قلوبهم الرعب وهزم الأحزاب وحده.

يقول الإمام ابن قيم الجوزية تحت عنوان جند الريح والملائكة:

وأرسل الله على المشركين جندا من الريح، فجعلت تقوض خيامهم، ولا تدع لهم قدرا إلا كفأتها، ولا طنبا [٢] إلا قلعته، ولا

---

(١) تاريخ الدولة العربية: ص ١٢٥، عن ابن حزم، ص ١٩١.

(٢) طنب (حبل الخيمة).

يقــر لهــم قــرار، وجنــد الله مــن الملائكــة يزلزلــونهم، ويلقــون فــى قلوبهم الرعب والخوف [١].

وبهـذه الجنـود رحـل جـيش الكفـر والبهتـان إلـى مكـة مهـزومين مـدحورين وكـان النصـر مـن عنـد الله فسـبحانه صـدق وعـده وأعـز جنده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده.

وجـاء فـى صـحيح البخـارى: عـن أبـى هريـرة رضي الله عنه: أن رسـول الله ﷺ كــان يقــول: **«لا إلـه الله وحـده، أعـز جنـده، ونصـر عبـده، وغلـب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده»** [٢].

* * *

(١) زاد المعاد: ابن قيم الجوزية: جـ ٣، ص ١٣.

(٢) صحيح البخارى (كتاب المغازى ص ٣٢ / ٣٦١٠).

-52-

غزوة بنى قريظة

بعد رحيل الأحزاب وعودتهم إلى مكة مخذولين مقهورين رأى الحبيب ﷺ أن بنو قريظة خانوا عهده وأعانوا عليه أعداءه، وإن تركهم سوف يفسدون فى الأرض، فقرر أن يؤدبهم، وكان أمر من الله سبحانه وتعالى كما صوره الحديث الذى روته السيدة عائشة رضى الله عنها، فعن عائشة رضى الله عنها قالت: " لما رجع النبى ﷺ من الخندق، ووضع السلاح، واغتسل، أتاه جبريل - عليه السلام - فقال: قد وضعت السلاح؟ والله ما وضعناه فاخرج إليهم، قال: «**فإلى أين**» قال: ههنا، وأشار إلى بنى قريظة، فخرج النبى ﷺ إليهم[(١)].

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال النبى ﷺ، يوم الأحزاب لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة، فأدرك بعضهم العصر فى الطريق، فقال بعضهم: لا نصلى حتى نأتى، وقال بعضهم: بل نصلى، لم يرد من ذلك. فذكر ذلك النبى ﷺ فلم يعنف واحداً منهم [(٢)].

---

(١) صحيح البخارى (جـ ١ كتاب المغازى ص ٣٢٨ / ٣٦١٢).

(٢) صحيح البخارى (جـ ٦ كتاب المغازى ص ٣٢٩ / ٣٦١٤).

ثم حكم رسول الله ﷺ فيهم سعد بن معاذ الذى حكم عليهم بقتل اليهود وأن تسبى ذريتهم ونسائهم وتصادر أموالهم، فرضى رسول الله ﷺ بحكمه.

* * *

-53-

غزوات وسرايا صغيرة

بعد تأديب بنى قريظة أرسل رسول الله ﷺ بعدد من السرايا كانت أولهم سرية (محمد بن مسلمة) ثم غزوة (بنى لحيان)، وقد ذكر فضيلة الشيخ صفى الرحمن المباركفورى هذه السرايا والغزوات بشكل مبسط، وسوف نكتفى بذكر أسمائها فقط ومنهم على سبيل المثال:

١ - سرية عكاشة بن محصن.

٢ - سرية محمد بن مسلمة.

٣ - سرية أبو عبيدة بن الجراح.

٤ - سرية زيد بن حارثة.

* * *

-54-

غزوة بنى المصطلق

وقت الغزوة: فى شعبان سنة ٦ هجرية.

وكان سبب الغزوة كما صورها حديث ابن إسحاق عن من حدثوه بعض حديث بنى المصطلق، قالوا: بلغ رسول الله ﷺ أن بنى المصطلق يجمعون له، وقائدهم الحارث بن أبى ضرار (أبو جويرية بنت الحارث زوج رسول الله ﷺ) فلما سمع رسول الله بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال له: (المريسع) من ناحية قدير إلى الساحل فتزاحم الناس واقتتلوا فهزم الله بنى المصطلق، وقتل من قتل منهم، ونفل رسولا لله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفاءهم عليه [١].

وعن ابن إسحاق أيضا: وأصيب من بنى المصطلق يومئذ ناس، وقتل على بن أبى طالب منهم رجلين، مالكا وابنه، وقتل عبد الرحمن بن عوف رجلا من فرسانهم.

فتنة ابن سلول (**رأس النفاق**):

خرج عبد الله بن أبى بن سلول فى هذه الغزوة طامعا فى الغنائم فقط، ولكن كان له عمل آخر هو بث سمه وشره بين

---

(١) سيرة ابن هشام: (جـ ٣، ص ١٨٣).

الناس، وقال لبعض جلسائه: أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل. ويقصد الأعز نفسه (لعنة الله عليه) وصل هذا الخبر وهذا الحديث إلى رسول الله ﷺ وكان فى مجلسه (عمر بن الخطاب) الذى ثار وأراد قتل ابن أبى ولكن الرسول العظيم ﷺ قال: «**يا عمر أتقبل أن تقول الناس إن محمدا يقتل أصحابه**»، وعندما عاد الحبيب ﷺ إلى المدينة وأصحابه أنزل الله تعالى على صدر الحبيب ﷺ سورة المنافقون ليشرح له ما دار بين المنافق وجُلسائه فقال تعالى:

{هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ المُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ المُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} [المنافقون: ، ٨].

وبعد نزول هذه الآيات أمر الحبيب ﷺ بإهدار دم عبد الله بن أبى بن سلول وقتله وعلم بذلك ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول وكان عبد الله الابن مسلما ومن صحابة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، فأتى رسول الله ليجعله هو قاتل أبيه بدلا من أن يعيره الناس بقاتل أبيه.

موقف الرسول ﷺ من عبد الله وعفوه عن أبيه:

قال ابن إسحاق: عن من حدثوه: أن عبد الله أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه، فإن كنت لابد فاعلا فمرنى به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى، وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله، فلا تدعنى نفسى أنظر قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس، فأقتله فأقتل مؤمنا بكافر، فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ : «**بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا**» [١].

وفى حاشية الكتاب (ابن هشام) عن ما سبق (وقيل إن عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول قال لأبيه: والذى لا إله إلا هو لا تدخل المدينة حتى تقول: إن رسول الله هو الأعز وأنت الأذل (عن القرطبى).

* * *

(١) سيرة ابن هشام: (جـ ٣، ص ١٨٦).

-55-

حديث الإفك

كان رسول الله ﷺ إذا خرج لغزوة أقرع بين نسائه (أى أجرى بينهم القرعة) على من تخرج معه، فكان فى غزوة بنى المصطلق قرعة السيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق رضي الله عنه، وبعد الغزوة وفى طريق الحبيب ﷺ وصحبه إلى المدينة نزلوا منزلا قريبا من المدينة للمبيت فيه فخرجت السيد عائشة لحاجة تقضيها، وكان فى عنقها عقد وقع منها، فعادت تبحث عنه، وفى هذه الأثناء تحرك الركب وعائشة ليست بهودجها على ناقتها، فرآها من بُعد صفوان بن المعطل الذى رماها بالإفك وسبها فى عرضها وشرفها.

وكان هذا الحديث فرصة للملعون عبد الله بن أبى بن سلول الذى أشاع هذا الحديث فى كل مكان وتحدث به وما هم إلا منافقون، وحديثهم باطل.

أما رسول الله ﷺ فقد حزن لما سمع حزنا شديدا، وقد تأخر الوحى فترة بعدها إلى أن أظهر الله براءة السيدة عائشة رضى الله عنها فى القرآن الكريم قال تعالى:

{إِنَّ الَّـذِينَ جَـاءُوا بِالإِفْـكِ عُصْـبَةٌ مِّـنكُمْ لاَ تَحْسَـبُوهُ شَـراً لَّكُـم بَـلْ هُوَ خَيْـرٌ لَّكُـمْ لِكُـلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّـا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْـمِ وَالَّـذِي تَـوَلَّى كِبْـرَهُ مِـنْهُمْ لَـهُ عَـذَابٌ عَظِـيمٌ * لَـوْلا إِذْ سَـمِعْتُمُوهُ ظَـنَّ المُؤْمِنُـونَ وَالْمُؤْمِنَـاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ} [النور ١١، ١٢].

فبـين الله تعـالى أن الـذين أتـوا بالإفـك إنمـا هـم عصـبة وأن لهـم العـذاب، كمـا بـين أن الـذين يشـيعون الفاحشـة ويتحـدثون بهـا لهـم عذاب أليم أيضا، فقال تعالى:

{إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [النور: ١٩].

كذلك من يرمى المحصنات بأى سوء فعليهم لعنة الله فقال تعالى:

{إِنَّ الَّـذِينَ يَرْمُـونَ المُحْصَـنَاتِ الغَـافِلاتِ المُؤْمِنَـاتِ لُعِنُـوا فِـي الـدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [النور: ٢٣].

وقـال الله سـبحانه وتعـالى عـن هـؤلاء الـذين يرمـون المحصـنات الغافلات بأنهم فاسقون وحدد لهم العقوبـة فـى الدنيا فقال تعـالى فـى أول سورة النور:

{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ} [النور: ٤].

وهكذا كانت براءة بيت النبوة وبراءة السيدة عائشة من كل ظلم وبهتان وإفك.

* * *

-56-

صلح الحديبية وبيعة الرضوان

زاد شـوق المسـلمين إلـى زيـارة مكـة والعمـرة بهـا، وعـزم الحبيـب ﷺ علـى العمـرة وزيـارة بيـت الله الحـرام فـى العـام السـادس مـن الهجـرة فـى شـهر ذى القعـدة، وبالفعـل خـرج رسـول الله ﷺ بالمسـلمين مـن المهـاجرين والأنصـار لا يريـد حربـا وإنمـا يريـد الزيـارة والعمـرة وعرفـت قـريش بـذلك فجمعـوا لـه جيشـا بقيـادة خالـد بـن الوليـد لصـد الرسـول ﷺ عـن دخـول مكـة، وعنـدما عـرف رسـول الله ﷺ ذلـك بـدل طريقـه وسـلك طريقـا آخـر حتـى انتهـى إلـى (الحديبية) وهى بالقرب من مكة.

وفكـر الحبيـب ﷺ أن يبعـث رسـولا يتفـاوض مـع أهـل قـريش ليـدخل مكـة آمنـا بـدون قتـال فبعـث عثمـان بـن عفـان ﷺ عنـه ليفـاوض قـريش فـى دخـول مكـة، ورفـض أهـل الكفـر وأجمعـوا علـى صـد رسـول الله ﷺ، ومكـث عثمـان بـن عفـان ثـلاث ليـال بمكـة، ظنـت المسـلمين أن عثمـان أصـابه مكـروه، وأن المشـركين قتلـوه، فقـام رسـول الله ﷺ ودعـا المسـلمين للمبايعـة علـى القتـال، فبايعـه المسـلمون بيعـة الرضـوان تحـت الشـجرة علـى القتـال، ورضـى الله عنهم أجمعين وعن هذه البيعة فقال تعالى:

{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً} [الفتح: ١٨، ١٩].

ثم رأت قريش أن عداوتهم مع المسلمين ستسفك الدماء وتُضيع الشباب فرأت أن ترسل رسولا إلى الحبيب ﷺ ليفاوضه على الصلح فأرسلوا سهيل ابن عمرو الخزاعى ومعه وفد ليفاوضوا رسول الله ﷺ، وكان التفاوض له شروط هى:

- أن يعود المسلمون للمدينة ويأتوا لمكة فى العام القادم.
- أن تكون هدنة لا حرب فيها لمدة عشر سنوات يأمن الناس بعضهم بعضا.
- من أحب الدخول فى حلف محمد دخل ومن أحب الدخول فى حلف قريش دخل.
- من أتى محمد مسلما دون إذن وليه رده على وليه ومن جاء قريش مرتدا عن الإسلام لم ترده قريش (وعلى هذا البند اغتاظ المسلمون ولكن رسول الله ﷺ طمأنهم وقال (إن الله سيجعل للمسلمين فرجا).

وهكذا تم الصلح وآمن الناس بعضهم بعضا.

-5-

رسل الدعوة

بعد صلح الحديبية والهدنة بين المسلمين والمشركين أرسل رسول الله ﷺ رسله إلى الملوك والأمراء للدخول فى الإسلام، فأرسل (عمر بن أمية) إلى النجاشى، و (دحية بن خليفة الكلبى) إلى هرقل قيصر الروم، و (عبد الله بن حذافة السهمى) إلى كسرى أنوشروان ملك الفرس، الذى مزق رسالة المصطفى ﷺ فدعا عليه الرسول بتمزيق ملكه، و (حاطب بن أبى بلتعة اللخمى) إلى المقوقس عظيم مصر الذى أكرم فيه حاطب وبعث إلى الحبيب ﷺ بهدية هى جاريتين هما (مارية القبية وأختها سيرين) للحبيب وأهدى أيضا بغلة يركبها قبل رسول الله ﷺ الهدية، كما أرسل (شجاع بن وهب الأسدى) إلى أمير غسان الذى رمى كتاب رسول الله ﷺ وقال من ينزع منى ملكى؟ وكتب إلى قيصر يستأذنه فى قتال محمد ولكن قيصر رفض حربه، ودعا رسول الله ﷺ على أمير الغساسنة وقال باد ملكه، ثم أرسل الحبيب صلوات الله وسلامه عليه (الحارث بن عمير الأزدى) إلى صاحب بصرى بأول الشام وعند مؤتة اعترضه شرحبيل بن عمرو الغسانى أحد أمراء الغساسنة وقتله وقد أدى ذلك إلى غزوة مؤتة (١).

(١) ملخص من تاريخ الدولة العربية (أ. د السيد عبد العزيز سالم).

-58-

إسلام خالد بن الوليد

بعد صلح الحديبية وهدنة رسول الله ﷺ مع أهل مكة، قام الحبيب ﷺ بعمرة القضاء فى ذى القعدة سنة هجرية، ومكث بمكة ثلاثة أيام، ثم عاد الجميع إلى المدينة، وأحس الحبيب ﷺ بما تركت هذه العمرة فى نفوس أهل مكة وتنبأ أنه سيكون لها آثار خطيرة فى صالح المسلمين، وصدق حس الرسول وكان من أثره أن قام خالد بن الوليد يوما فى جمع من أهل قريش وقال: (لقد استبان لكل ذى عقل أن محمدا ليس بساحر ولا شاعر، وأن كلامه من كلام رب العالمين فحق على كل ذى لب أن يتبعه، وقد فزع عكرمة بن أبى جهل لما سمع، فرد قائلا: لقد صبوت يا خالد، وبعث خالد إلى النبى بأفراس وبعث إليه بإقراره بالإسلام وعرفانه، وأسلم بعد خالد بن الوليد عمرو بن العاص وحارس الكعبة عثمان بن طلحة وأسلم بإسلام هؤلاء الكثير من أهل مكة، وبذلك قويت شوكة الإسلام وأصبح فتح مكة أبوابها لمحمد أمر لا محل لريبة فيه)[١].

* * *

---

(١) ما بين القوسين (ملخص) من حياة محمد د. محمد حسين هيكل، ص ٤٠٨.

-59-

غزوة خيبر

يقول الإمام ابن قيم الجوزية: " قال موسى بن عقبة: ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة من الحديبية مكث بها عشرين ليلة أو قريب منها، ثم خرج غازيا إلى خيبر، وكان الله عز وجل وعده إياها وهو بالحديبية " [١].

وكانت هذه الغزوة فى شهر صفر سنة هجرية [٢].

وعن أنس رضي الله عنه قال: " صلى النبى ﷺ الصبح، قريبا من خيبر، بغلس ثم قال: الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذرين، فخرجوا يسعون فى السكك، فقتل النبى ﷺ المقاتلة، وسبى الذرية، وكان فى السبى (صفية)، فصارت إلى (دحية الكلبى)، ثم صارت إلى النبى ﷺ فجعل عتقها صداقها [٣].

* * *

---

(١) زاد المعاد (ابن قيم الجوزية) جـ ٣، ص ٢١.

(٢) طبقا لما ورد فى التواريخ الهجرية: (محمد مختار باشا).

(٣) صحيح البخارى: (جـ ٦، ص ٣، ٣٦٢).

-60-

غزوة مؤتة

بعد أن قتل أمير مؤتة شرحبيل بن عمر الغسانى (رسول) رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدى، ثار رسول الله ﷺ وقرر تأديب هذا الأمير، فأعد جيشا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل وعين قائدهم (زيد بن حارثة) وأوصاه بأن تكون الراية إلى (جعفر بن أبى طالب) من بعده ومن بعد جعفر تكون الراية إلى (عبد الله بن رواحة) وأوصاهم الحبيب ﷺ بتقوى الله ولزوم طاعته وقال لهم: اغزوا فى سبيل الله باسم الله، وأوصاهم بعدم قتل الأطفال ولا يقتلون النساء ولا الكبير الفانى وألا يُغرقوا نخلا ولا يقطعوا شجرا ولا يهدموا بيوتا، (صدق من سماك الرؤوف الرحيم).

وكان هرقل ملك الروم خرج فى جيش قوامه مائتى ألف مقاتل من الروم ومن نصارى الشام فقال المسلمون: نرسل إلى رسول الله لنخبره بعددنا وعدد العدو، فقال لهم عبد الله بن رواحة: نحن خرجنا للشهادة وما قاتلهم إلا بهذا الذى أكرمنا الله به.

واشتبك الفريقان عند مؤتة حيث التقوا، وكان القتال عنيفا

فاستشــهد زيــد بــن حارثــة فأخــذ جعفــر بــن أبــى طالــب الرايــة وظــل يقاتــل بهــا حتــى قُطعــت يــده اليمنــى فحمــل الرايــة بيــده اليســرى حتــى قُطعــت هــى الأخــرى فاحتضــن الرايــة فــى صــدره حتــى استشــهد، فأخــذ الرايــة (عبــد الله بــن رواحــة) وقاتــل حتــى استشــهد، فأخــذ الرايــة (ثابــت بــن أقــوم) وقــال: يــا قــوم اختــاروا لكــم قائــدا فقــالوا لـــه: أنــت يــا ثابــت فــرفض، فاختــاروا (خالــد بــن الوليــد) الــذى حمــل الرايــة وقاتــل بهــا، ولكــن درايــة خالــد بــن الوليــد بــالحرب جعلتــه يفكــر فــى انســحاب جيشـــه والعـــودة بـــه إلـــى المدينـــة المنـــورة بعـــد أن أوقـــع بالأعـــداء خســائر فادحــة وعــاد خالــد بجيشــه إلــى المدينــة، وكــان هــذا الانســحاب تخليصا للمسلمين من شر قادم إليهم.

* * *

-61-

الفتح العظيم

فتح مكة

كان من شروط صلح الحديبية أن: " من أحب الدخول فى حلف محمد دخل ومن أحب الدخول فى حلف قريش دخل ".

ومن الذين دخلوا فى حلف محمد ﷺ بنو عبد المطلب وخزاعة، ووممن دخلوا فى حزب قريش بنو بكر بن عبد مناة.

سبب غزوة فتح مكة:

بعد دخول خزاعة حلف رسول الله ﷺ أصبح لهم حق الدفاع من المسلمين والاستنجاد بهم، وكان بين خزاعة وبنو بكر عداءات قديمة ومناوشات واعتدى بنو بكر على خزاعة وأيدتهم قريش فى ذلك، فاستنجدت خزاعة بالمسلمين.

إذن: فقد نقض أهل مكة معاهدة صلح الحديبية ووقفوا بجانب بنو بكر ضد المسلمين، ووصل الخبر إلى المصطفى ﷺ ونقضهم العهد، فرأى النبى ﷺ أنه لا مقابل إلا فتح مكة، وقد كان بعض سادات قريش يحرضون أهل مكة بنصرة بنو بكر ومن هؤلاء السادة عكرمة بن أبى جهل.

أبو سفيان سفيرا من مكة:

أحس أهل مكة يخطئهم فى نقض عهدهم بمحمد ﷺ، وعرفوا أن المسلمين يزدادون قوة، ففكروا فى أن يتفاوض أبو سفيان بن حرب مع رسول الله ﷺ ويجدد معه الصلح، وبالفعل ذهب إلى المدينة للقاء رسول الله ﷺ وقصد بيت بنته أم حبيبة زوج رسول الله ﷺ، فأغلظت له القول، وذهب إلى أبى بكر الصديق ليكون رسولا بينه وبين الرسول ﷺ فأبى، وذهب إلى عمر بن الخطاب الذى عنفه بشدة وأبى وساطته، وذهب إلى على بن أبى طالب فحدثه على برفق وقال له لا يستطيع أحد أن يرد محمدا، فعاد أبو سفيان بن حرب إلى مكة مهزوما مما لحق به من ذل وهوان من المسلمين ومن ابنته أقرب الناس إليه [١].

يقول الدكتور أحمد شلبى فى سلسلة (من السيرة النبوية العطرة جـ ١٦):

وأعد الرسول جيشا عظيما، لم تشهده الجزيرة العربية من قبل، إذ كان عدده عشرة آلاف شخص، يسيرون فى طاعة مطلقة لقائدهم العظيم.

---

(١) ملخص من سيرة الرسول (حياة محمد د. محمد حسين هيكل) ص ٤١٨.

ومضى جيش المسلمين فى طريقه إلى مكة المكرمة بقيادة القائد الأعظم محمد ﷺ بقوة لم ترها قريش من قبل.

العباس بن عبد المطلب وأبو سفيان:

يقول الدكتور السيد عبد العزيز سالم: وتجمع المصادر على أن أبا سفيان وبديل بن ورقة وحكيم بن حزام خرجوا من مكة يتلقفون الأخبار، كما تُجمع على أن العباس بن عبد المطلب، الذى وقف إلى جانب الرسول فى بيعة العقبة الثانية والذى كان يوافى النبى ﷺ بأخبار مكة وتحركاتها ضده، خرج مهاجرا وأنه لقى رسول الله فى ذى الحليفة، وفى ذلك دلالة على أن قريش كانت تتوقع مسيرة الرسول، ولخروج العباس للقاء النبى مغزيان: الأول أن يصبح مهاجرا قبل أن يفتح رسول الله مكة، والثانى: أن يأخذ الأمان لقريش. كذلك لم يكن خروج كل من أبى سفيان وبديل بن ورقة مجرد صدفة أو اتفاقا وإنما ليسهل له بديل الاتصال بالرسول، كما أن لقاء أبو سفيان بالعباس وهو راكب بغلة النبى لم يكن مجرد صدفة أو محض اتفاق ومن المعتقد أنه اتفق معه على هذا اللقاء حتى يجيره العباس أمام المسلمين ويمنعه من التعرض لسيوفهم وفى نفس الوقت ليمثل قريش أمام الرسول، ويعلن إسلامه، وعندئذ يؤمن الرسول أهل مكة، فلا تُفتح عنوة، وعندما أسلم أبو سفيان فى حضرة النبى

قال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئا، فقال له رسول الله ﷺ: **«من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»** وبذلك أصبحت مكة مؤمنة على دماء أهليها وذراريهم وأموالهم ونسائهم، إلا من قاتل [١].

أحس أبو سفيان بأنه مازال عزيزا فى قومه بعد إسلامه وأن رسول الله ﷺ جعل من يدخل داره آمنا، فعاد إلى مكة ليبلغ قومه بأمان رسول الله ﷺ لمن دخل بيته ولمن دخل البيت الحرام، ولكن نفر من أهل مكة على رأسهم عكرمة بن أبى جهل أصروا على الفتنة والقتال، فقاموا بمناوشة جيش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد القائد الذى لا يُشق له غبار، وهزم أولئك النفر وقُتل منهم ٣١ رجلا ومن المسلمين ثلاثة رجال فقط.

دخل الجيش المسلم وعلى رأسه الحبيب صوات الله وسلامه عليه ظافرا منتصرا واستأمن بعض أهل مكة رسول الله ﷺ والبعض قُتل والبعض خرج من مكة فارا بنفسه مثل عكرمة بن أبى جهل.

---

(١) تاريخ الدول العربية (ص ١٢٦).

كرم الحبيب ﷺ وعفوه:

بعد نصر الله وقف الحبيب ﷺ وقال لهم: **«ما تظنون أنى فاعل بكم؟»** قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: **«فإنى أقول لكم كما قال يوسف لإخوته:**

{لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}(١)

اذهبوا فأنتم الطلقاء».

صلى عليك الله يا نور الهدى يا من زكاك ربك وقال: إنك أنت الرؤوف الرحيم.

وطاف رسول الله بالبيت وطمس الصور التى بالبيت وأمر بتكسير الأصنام وتحطيمها وكان فتح مكة هو الفتح الأعظم.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (متحدثا عن رسول الله ﷺ) ثم جلس فى المسجد، فقام إليه على بن أبى طالب رضى الله عنه، ومفتاح الكعبة فى يده، فقال: يا رسول الله! اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: **«أين عثمان بن طلحة؟»** فدعى له، فقال له: **«هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء»** (٢).

---

(١) آية ٩٢ من سورة يوسف.

(٢) زاد المعاد (جـ ٣، ص ٣١٦).

ويختتم د. محمد حسين هيكل فتح مكة بقولـه:

وفـى الأسـبوعين اللـذين أقـام محمـد بمكـة عفـى علـى كـل آثـار الوثنية فيها.

ولـم ينتقـل إلـى الإسـلام مـن مناصـب البيـت الحـرام إلا سـدانة الكعبـة، أقرهـا النبـى فـى عثمـان بـن طلحـة وأبنائـه مـن بعـده حتـى يـرث الله الأرض ومـن عليهـا لا يأخـذها مـنهم إلا ظـالم، وسـقاية الحاج من زمزم لعمه العباس.

وكـذلك آمنـت أم القـرى ورفعـت منـار التوحيـد ولـواءه وأضـاءت العالم خلال الأجيال والقرون بنوره الوضاء (١).

* * *

(١) حياة محمد (د. محمد حسين هيكل) ص ٤٣١.

-62-

غزوة حنين والطائف

بعد فتح مكة ونصرة الله لرسوله والمؤمنين تحالفت هوازن وثقيف بالطائف على قتال محمد ﷺ خشية أن يفاجئهم بالحرب وكان أميرهم الذى اختاروه مالك بن عوف وكان عمره ثلاثين عاما، وعلم رسول الله ﷺ بخروجهم فأعد جيشا قوامه اثنا عشر ألف رجل من المهاجرين والأنصار ومن أهل الفتح، وتحرك الجيش حتى وصلوا وادى حُنين فخرجت عليهم هوازن من مكامنها، وهزموهم المسلمين فتضائل جيش الكفر إلا أن المسلمين انشغلوا بالغنائم، فكر عليهم المشركون مرة ثانية، ففر من الحرب عدد من المسلمين ومن أهل مكة والفتح، ولكن رسول الله ﷺ بقى مكانه على بغلته يقول: **«أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب»** وهنا أشيع بين المسلمين أن رسول الله ﷺ قُتل، فصاح فيهم العباس بن عبد المطلب أن الرسول حيا، فعاد كل من ولى مدبرا وكانوا على قلب رجل واحد وضربوا العدو وأذاقوه الذل والهوان، وفى هذه الغزوة أنزل الله قرآنا فقال تعالى:

{لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ} [التوبة: ٢٥، ٢٦].

وفـي هـذه المعركـة قُتـل مـن أهـل ثقيـف ٠ رجـلا، أمـا أميـرهم مالـك ابـن عـوف فقـد فـر هاربـا إلـى الطـائف، وحاصـر رسـول الله الطـائف لمـدة ١٥ يومـا ثـم رحـل عنهـا إلـى الجعرانـة، وعـرف أهـل الطـائف قـوة جـيش المسـلمين فبعثـوا لرسـول الله ﷺ وفـدا مـنهم يرأسـه عبـد ياليـل بـن عميـر الـذى عقـد صـلحا مـع رسـول الله فصالحهم الرسول على أن يُسلموا ويترك لهم أموالهم.

* * *

-63-

غزوة تبوك

بعدما أنار الله بنوره وأتم الفرحة لرسول الله وللمؤمنين وأصبحت جزيرة العرب تنعم بالإسلام، فكر هرقل الروم أن يقضى على دولة الإسلام، فأعد جيشا كبيرا فى الشام لخوفه على ملكه، وأعد رسول الله ﷺ جيشا من ثلاثين ألف رجل مقاتل وعشرة آلاف من الخيل، وخرج حتى بلغ تبوك فأقام بها عشرين ليلة فلم يلق كيدا من أحد ولم يحارب، وتراجع هرقل عن رأيه لما عرف قوة المسلمين وكانت هذه الغزوة فى رجب سنة ٩ هجرية.

* * *

-64-

عام الوفود
وحج أبو بكر الصديق

فــى نهايــة العــام التاســع الهجــرى، وبعــد انتهــاء الغــزوات الداميــة وفــتح مكـــة توافــدت الوفــود مــن العــرب إلــى مدينـــة رســول الله ﷺ مسلمين لـه وسمى هذا العام بعام الوفود.

وحينمــا قــارب العــام علــى الانتهــاء وفــى ذى القعــدة بعــث رســول الله ﷺ أبا بكر الصديق أميرا على الحج.

قــال ابــن إســحاق: ثــم أقــام رســول الله ﷺ بقيــة شــهر رمضـــان وشــوالا وذا القعــدة ثــم بعــث أبــا بكــر أميــرا علــى الحــج ســنة تســع، ليقـيم للمسـلمين حجهـم، والنــاس مـن أهـل الشـرك علــى منــازلهم مــن حجهم، فخرج أبو بكر رضي الله عنه ومن معه من المسلمين [١].

ثــم نزلــت علــى رسـول الله ﷺ ســورة بــراءة (التوبــة) وهــى بــراءة مــن العهــود التــى كانــت بــين رســول الله واليهــود والــذين لــم يــدخلوا فــى الإســلام، وأوضــح الله فــى هــذه الســورة أن تــتم مــدة المهلــة التــى أمهلهــا رسـول الله ﷺ للكفــار للــدخول فــى الإســلام وهــى أربعــة أشــهر فقــط وبعــد هــذه المهلــة أمــر الله بقتــالهم حيــث وُجــدوا وحيــث كــانوا

(١) سيرة ابن هشام: جـ ٤، ص ٣٨٥.

لأنـه لا دخـول لهـم البيـت الحـرام ثانيـة وأن الحـج أصـبح علـى ديـن الإسلام فلا شرك فى البيت.

فـــى هـــذا الموضـــوع يقـــول فضـــيلة الشـــيخ صـــفى الـــرحمن المباركفورى:

ثـم نزلـت أوائـل سـورة بـراءة بـنقض المواثيـق ونبـذها علـى سـواء، فبعـث رسـول الله ﷺ (علـى بـن أبـى طالـب) ليـؤدى عنـه ذلـك، وذلـك تمشـيا منـه علـى عـادة العـرب فـى عهـود الـدماء والأمـوال، فـالتقى (علـى) بـأبى بكـر بـالعرج أو بضـجنان، فقـال أبـو بكـر: أميـر أو مـأمور؟ قـال علـى: بـل مـأمور ثـم مضـيا، وأقـام أبـو بكـر للنـاس حجهـم، حتـى إذا كـان يـوم النحـر، قـام علـى بـن أبـى طالـب عنـد الجمـرة، فـأذن فـى النـاس بالـذى أمـره رسـول الله ﷺ ونبـذ إلـى كـل ذى عهـد عهـده، وأجـل لهـم أربعـة شـهور، وكـذلك أجـل أربعـة أشـهر لمـن لـم يكـن لـه عهـد، وأمـا الـذين لـم ينقضـوا المسـلمين شـيئا، ولـم يظـاهروا علـيهم أحـدا، فـأبقى عهـدهم إلـى مـدتهم، وبعـث أبـو بكـر رضـى الله عنـه، رجـالا ينـادون فـى النـاس: ألا لا يحـج بعـد هـذا العـام مشـرك، ولا يطـوف بالبيـت عريـان - ويضـيف: وكـان هـذا النـداء بمثابـة إعـلان نهايـة الوثنيـة فـى جزيـرة العـرب، وأنـه لا

تبدئ ولا تعيد بعد هذا العام[١].

* * *

-65-

حجة الوداع

بعد أن حج أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالناس وأبقى على عهود من عاهد رسول الله ﷺ، فى أجل المدة المحددة وهى أربعة أشهر، فعلم الجميع أنه لا حج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان.

تأكد المشركون أن الأوثان لم يعد لها مكان بعد دخول نور الله قلوب المؤمنين وآمن الناس برسالة الحق، وصدر الأمر الإلهى لرسول الله ﷺ بقتال الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر حتى ولو كانوا من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) فقال تعالى فى سورة التوبة:

{قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة: ٢٩].

---

(١) الرحيق المختوم ص ٣٨٥ (عن صحيح البخارى، وزاد المعاد، وابن هشام).

ثم فرق الله سبحانه وتعالى بين اليهود والنصارى وأخبر بها رسول الله ﷺ فقال تعالى:

{لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اليَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ} [المائدة: ٨٢].

أصبحت مكة وما حولها مستنيرة بدين الحق وازداد انتشار الإسلام يوما بعد يوم.

النبى ﷺ يستعد للحج:

لم يكن النبى ﷺ حج الحج الأكبر وإنما حج الحج الأصغر (العمرة) مرتين فأعلن فى الناس عن استعداده للحج فى هذا العام (العام العاشر من الهجرة)، وسرعان ما انتشرت الدعوة وأتى المدينة وفود من الناس من كل بقاع الأرض العربية التى أشرق عليها نور الإسلام، حتى وصلت هذه الوفود إلى ما يزيد على المائة ألف مسلم أتوا لمدينة رسول الله ليشرفوا بصحبة رسول الله ﷺ فى رحلة الحج، وفى يوم ٢٥ من ذى القعدة سنة عشرة هجرية خرج الحبيب صلوات الله وسلامه عليه بالمسلمين قاصدا مكة وبيت الله الحرام حتى بلغوا ذى الحليفة فأقاموا فيها ليلتهم، وعند الصباح أحرموا ولبس كل منهم إزاره ورداءه وسار الجميع خلف رسول

الله ﷺ مـرددين وراءه (لبيـك اللهـم لبيـك، لبيـك لا شـريك لـك لبيـك، الحمد والنعمة والشكر لك لبيك، لا شريك لك لبيك).

وصـل وفـد الله إلـى مكـة المكرمـة حتـى إذا كـان يـوم الترويـة اليـوم الثـامن مـن ذى الحجـة أقـام الحبيـب بــ (مِنَـى) وضـرب خيامـه فيهـا وصـلى بهـا فـروض يومـه وبـات بهـا حتـى فجـر التاسـع مـن ذى الحجـة (يـوم عرفـة) فصـلى الفجـر وركـب ناقتـه (القصـواء) ودار حـول جبـل الرحمـة (جبـل عرفـات) وكـل الحجـيج مـن خلفـه حتـى مغـرب الشـمس ونـادى فـى النـاس يخطـبهم، وكـان يـردد كلامـه (ربيعـة بـن أميـة) ليبلـغ النـاس خلـف رسـول الله حيـث لا توجـد مكبرات الصوت المنتشرة الآن.

خطبة حجة الوداع:

بعـد حمـد الله والثنـاء عليـه قـال: «**أيهـا النـاس: اسـمعوا قـولى فـإنى لا أدرى لعلـى لا ألقـاكم بعـد عـامى هـذا بهـذا الموقـف أبـدا. " أيهـا النـاس، إن دمـاءكم وأمـوالكم علـيكم حـرام إلـى أن تلقـوا ربكـم كحرمـة يـومكم هـذا، وكحرمـة شـهركم هـذا " وإنكـم سـتلقون ربكـم فيسـألكم عـن أعمـالكم وقـد بلغـت. فمـن كانـت عنـده أمانـة فليؤدهـا إلـى مـن ائتمنـه عليهـا. وإن كـل ربـا موضـوع [١]، ولكـن لكـم رؤوس أمـوالكم لا تظلمـون ولا تُظلمـون. قضـى الله**

(١) أى مهدر.

أنه لا ربا، وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله. وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع، وأن أول دماءكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب.

أما بعد أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس من أن يُعبد بأرضكم هذه أبدا. ولكنه إن يُطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس: إن النسىء زيادة فى الكفر يُضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيُحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله. وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية ورجب مفرد الذى بين جمادى وشعبان.

أما بعد، أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح. فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف. واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان [(١)] لا يملكن لأنفسهن شيئا. وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله.

---

(١) عوان: أسرى أو كالأسرى، الواحدة عانية.

" فـاعقلوا أيهـا النـاس قـولى فـإنى قـد بلَّغـت، وقـد تركـت فـيكم مـا إن اعتصم به فلن تضلوا أبدا أمرا بينًا: كتاب الله وسنة رسوله.

أيها النـاس: اسـمعوا قـولى واعقلـوه. تعلمـون أن كـل مسـلم أخ للمسـلم، وأن المسـلمين إخـوة فـلا يحـل لامـرئ مـن أخيـه إلا مـا أعطـاه عـن طيـب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم. "اللهم هل بلغت"».

كـان النبـى يقـول هـذا و (ربيعـة) يـردده مـن بعـده مقطعـا مقطعـا، ويسـأل النـاس أثنـاء ذلـك ليحـتفظ بيقظـة أذهـانهم، فكـان النبـى يكفلـه أن يسـألهم مـثلا: إن رسـول الله يقـول: هـل تـدرون أى يـوم هـذا؟ فيقولون: يوم الحج الأكبر.

فيقـول النبـى: قـل لهـم إن الله قـد حـرم علـيكم دمـاءكم وأمـوالكم إلـى أن تلقـوا ربكـم كحرمـة يـومكم هـذا. فلمـا بلـغ خاتمـة كلامـه وقـال: اللهـم هـل بلغـت، أجـاب النـاس مـن كـل صـوب. نعـم. فقـال: " اللهم اشهد ".

ولمـا أتـم النبـى خطابـه نـزل عـن ناقتـه القصـواء، وأقـام حتـى صـلى الظهـر والعصـر ثـم ركبهـا حتـى الصـخرات، وهنـاك تـلا عليـه السلام على الناس قول الله تعالى:

{الْيَـوْمَ أَكْمَلْـتُ لَكُـمْ دِيـنَكُمْ وَأَتْمَمْـتُ عَلَـيْكُمْ نِعْمَتِـي وَرَضِـيتُ لَكُـمُ الإِسْلامَ دِيناً} [المائدة: ٣].

فلما سمعها أبو بكر بكى إذ أحس أن النبى وقد تمت رسالته قد دنا يومه الذى يلقى ربه، وترك النبى عرفات وقضى ليلة بالمزدلفة، ثم قام فى الصباح فنزل بالمشعر الحرام، ثم ذهب إلى (منى) وألقى فى طريقه إليها الجمرات، حتى إذا بلغ خيامه نحر ثلاثا وستين ناقة، واحدة عن كل سنة من سنى حياته، ونحر على ما بقى من الهدى المائة التى ساق النبى منذ خروجه من المدينة. ثم حلق النبى رأسه وأتم حجه. أتم هذا الحج الذى يسميه بعضهم حجة الوداع، وآخرون حجة البلاغ، وغيرهم حجة الإسلام وهى فى الحق ذلك كله؛ فقد كانت حجة الوداع، رأى فيها محمد مكة والبيت الحرام للمرة الأخيرة، وكانت حجة الإسلام أكمل الله فيها للناس دينه وأتم عليهم نعمته، وكانت حجة البلاغ، وأتم النبى فيها بلاغه للناس ما أمره الله ببلاغه، وما محمد إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون[١].

* * *

(١) حياة محمد (د. محمد حسين هيكل) ص ٤٩١ - ٤٩٣.

-66-

مرض الحبيب ﷺ

فـى هـذا الجـزء مـن الكتـاب سـوف أذكـر أحاديـث ابـن إسـحاق الـواردة فـى شـأن مـرض رسـول الله ﷺ : قـال ابـن إسـحاق: فبينـا النـاس علـى ذلـك ابتـدئ رسـول الله ﷺ بشـكوه الـذى قبضـه الله فيـه، إلـى مـا أراد بـه مـن كرامتـه ورحمتـه، فـى ليـال بقـين مـن صـفر، أو فـى أول شـهر ربيـع الأول، فكـان أول مـا ابتـدئ بـه مـن ذلـك، فيمـا ذكـر لـى، أنـه خـرج إلـى بقيـع الغرقـد، مـن جـوف الليـل، فاسـتغفر لهـم، ثـم رجـع إلـى أهلـه، فلمـا أصـبح ابتـدئ بوجعـه مـن يومـه ذلـك (١).

كـان الحبيـب ﷺ يعـدل بـين زوجاتـه فـى كـل شـىء وأثنـاء مرضـه كـان يـدور علـيهن حتـى اشـتد عليـه المـرض وهـو فـى بيـت (ميمونـة بنـت الحـارث) فـدعا نسـائه كلهـن واسـتأذنهن فـى أن يُمـرض فـى بيت (عائشة)، فأُذن لـه.

وأثنـاء مرضـه دخـل المسـجد وهـو معصـوب الـرأس حتـى جلـس علـى المنبـر وخطـب النـاس - والنـاس مجتمعـون حولـه - فقـال: **«لعنـة الله علـى اليهـود والنصـارى، اتخـذوا قبـور أنبيـائهم مسـاجد»** وفـى

(١) سيرة ابن هشام: جـ ٤، ص ٤٦٩.

رواية: **«قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»** وقال: **«لا تتخذوا قبرى وثنا يُعبد»**. ثم عرض نفسه للقصاص قائلا: **«من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضى فليستقد منه»** (١).

وقبل وفاة الحبيب بأربعة أيام ثقل عليه المرض حتى صلى أبو بكر الصديق بالناس تلك الأيام ويُرجح فضيلة الشيخ صفى الرحمن المباركفورى أنهم كانوا ١ صلاة أم بها أبو بكر المسلمين.

وفى يوم ١١ من ربيع الأول (الأحد) أعتق الحبيب ﷺ غلمانه ومواليه وتصدق بما عنده من مال وهى دنانير.

* * *

(١) الرحيق المختوم: ص ٤٠٦.

-6-

وفاة الحبيب ﷺ

بعد نزول الآية (٣) من سورة المائدة:

{اليَـوْمَ أَكْمَلْـتُ لَكُـمْ دِيـنَكُمْ وَأَتْمَمْـتُ عَلَـيْكُمْ نِعْمَتِـي وَرَضِـيتُ لَكُـمُ الإِسْلامَ دِيناً}.

أحـس الحبيـب صـلوات الله وسـلامه عليـه بـدنو أجلـه، وأنـه سـيلقى الله سـبحانه وتعـالى وهـو يعلـم أنـه سـيموت لأن الله أخبـره من قبل بهذا حيث قال تعالى:

{إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ} [الزمر: ٣٠].

يقـول الشـيخ محمـد علـى الصـابونى فـى صـفوة التفاسـير عـن تفسير هذه الآية: (أى أنك يا محمد ستموت كما يموت هؤلاء).

قـال ابـن إسـحاق: وقـال الزهـرى: حـدثنى أنـس بـن مالـك. أنـه لمـا كـان يـوم الاثنـين الـذى قـبض الله فيـه رسـول الله ﷺ: خـرج إلـى النـاس. وهـم يصـلون الصـبح. فرفـع السـتر، وفـتح البـاب، فخـرج رسـول الله ﷺ، فقـام علـى بـاب عائشـة، فكـاد المسـلمون يفتتنـون فـى صـلاتهم برسـول الله ﷺ حـين رأوه فرحـا بـه وتفرجـوا، فأشـار إلـيهم أن اثبتـوا علـى صـلاتكم، قـال: فتبسـم رسـول الله ﷺ سـرورا لمـا رأى مـن هيئـتهم فـى صـلاتهم، ومـا رأيـت رسـول الله ﷺ أحسـن

هيئة منه تلك الساعة قال: ثم رجع وانصرف الناس وهم يرون أن رسول الله ﷺ قد افرق من وجعه فرجع أبو بكر إلى أهله بالسنح (والسنح موضع كان فيه مال لأبى بكر) [(١)].

اختيار الرسول ﷺ الرفيق الأعلى:

قال ابن إسحاق: وحدثنى يعقوب بن عتبة الزهرى، عن عروة، عن عائشة قال: قلت: رجع إلى رسول الله ﷺ فى ذلك اليوم حين دخل من المسجد فاضطجع فى حجرى، فدخل علىّ رجل من آل أبى بكر، وفى يده سواك أخضر. قالت: فنظر رسول الله إليه فى يده نظرا عرفت أنه يريده قالت: " فقلت: يا رسول الله أتحب أن أعطيك هذا السلوك؟ قال: نعم، قالت: فأخذته فمضغته له حتى لينته، ثم أعطيته إياه. قالت: فاستن به كأشد ما رأيته يستن بسواك قط، ثم وضعه ووجدت رسول الله ﷺ يثقل فى حجرى، فذهبت أنظر فى وجهه، فإذا بصره قد شخص، وهو يقول بل الرفيق الأعلى من الجنة قالت: فقلت خُيرت فاخترت والذى بعثك بالحق. قالت وقبض رسول الله ﷺ[(٢)].

---

(١) سيرة ابن هشام: جـ ٤، ص ٤٧٩.

(٢) سيرة ابن هشام: جـ ٤ ص ٤٨٠.

وفاة الرسول فى بيت عائشة:

قال ابن إسحاق: وحدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عباد، قال: سمعت عائشة تقول: مات رسول الله ﷺ بين سحرى ونحرى وفى دولتى، لم أظلم فيها أحدا، فمن سفهى وحداثة سنى أن رسول الله ﷺ قبض وهو فى حجرى، ثم وضعت رأسه على وسادة، وقمت ألتدم [١] مع النساء، وأضرب وجهى[٢].

شأن أبى بكر بعد وفاته:

قال: وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر، وعمر يكلم الناس، فلم يلتفت إلى شىء حتى دخل على رسول الله ﷺ فى بيت عائشة، ورسول الله مُسجى فى ناحية البيت، عليه بردة حبرة[٣] فأقبل حتى كشف عن وجه الرسول ﷺ. قال: ثم أقبل عليه فقبله، ثم قال: بأبى أنت وأمى، أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا، قال: ثم رد البرد على وجه رسول الله ﷺ، ثم خرج وعمر يكلم الناس، فقال: على رسلك يا عمر، أنصت، فأبى إلا أن يتكلم، فلما رآه أبو

---

(١) ألتدم: أضرب صدرى.

(٢) سيرة ابن هشام: جـ ٤، ص ٤٨١.

(٣) الحبرة: ضرب من ثياب اليمن.

بكر لا ينصت أقبل على الناس، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، أنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت. قال ثم تلا هذه الآية:

{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} (١) [آل عمران: ١٤٤].

قال: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ، قال: وأخذها الناس على أبى بكر، فإن هى فى أفواههم، قال: فقال أبو هريرة: قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعقرت (٢) حتى وقعت إلى الأرض ما تحملنى رجلاى، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات (٣).

وتركنا الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه فى هذه الدنيا بكل مشاكلها وصعابها واعتقد أن كلمات المستشرقين والأجانب الذين لا يدينون بدين الإسلام شهدوا لمحمد ﷺ شهادات جميلة وكما تقول الحكمة (والفضل ما يشهد به الأعداء).

---

(١) سيرة ابن هشام: جـ ٤ ص ٤٨١.

(٢) عقرت: دهشت فلم أستطع التقدم أو التأخر.

(٣) سيرة ابن هشام: جـ ٤ ص ٤٨٢.

فقــال عنــه المــؤرخ العــالمى والروائــى (برناردشــو): (وإنــى أعتقـد أن رجـلا كمحمـد لـو تسـلم زمـام الحكـم المطلـق فـى العـالم بأجمعـه اليـوم لـتم لـه النجـاح فـى حكمـه، ولقـاد العـالم إلـى الخيـر وحــل مشــاكله علــى وجــه يحقــق للعــالم كلــه الســلام والســعادة المنشـودة... أجـل... مـا أحـوج العـالم اليـوم إلـى رجـل كمحمـد ليحـل قضاياه المعقدة بينما هو يتناول فنجان من القهوة).

وقال الإمام البوصيرى فى بردة المديح:

لا طيـب يعـدل تربـا ضـم أعظمـه ::: طــوبى لمنتشــق منــه وملتــثم

لقـد وحـدت كـل أمـة الإسـلام يـا سيدى يـا رسـول الله فكـم أحوجنـا إليـك فـى هـذه الأيـام، اللهـم عزاءنـا فيـك أن نسـير علـى سـنتك وعلـى هـديك ونكـون ممـن يسـتمعون القـول فيتبعـون أحسـنه. سـوف نسـير علــى كلماتــك يــا سيــدى يـا رسـول الله يـا مـن قلـت: «**تركـت فيكـم مـا إن تمسـكتم بـه لـن تضـلوا بعـدى أبـدا، كتـاب الله وسـنتى**» فــنحن علــى عهـدكم سـائرون، فاشـفع لنـا يـا شـفيع أمـة الإسـلام وأسـتعير قـول أمير الشعراء أحمد شوقى فى الهمزية النبوية:

يــا مــن لــه عــز الشــفاعة وحــده ::: وهــو المنــزه مــا لــه شــفعاء

اللهم أسألك أن تسامحنى إذا كنت قد قصرت فى إحياء سيرة سيدى رسول الله ﷺ وقد ختمت هذه السيرة اليوم الاثنين الموافق الرابع من ربيع الأول سنة ألف وأربعمائة وعشرون هجرية، الخامس من مايو سنة ألفين وثلاثة ميلادية.

والله الموفق والمستعان

والله على ما أقول وكيل وشهيد

عبد الرحمن عبد العظيم مشهور

بنها - بنها الجديدة - ش سيف النصر

ت: ٢٣٩٩١٩ / ٠١٣ بنها

بريد إلكترونى:

abdelrahman Mashhour@ageeb. com

A - mashhour55@hotmail. com

* * *

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- صحيح البخارى: طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

٣- رياض الصالحين: النووى.

٤- السيرة النبوية لابن هشام: تحقيق أ. د / محمد فهمى السرجانى.

٥- البداية والنهاية لابن كثير: تحقيق أ. صدقى العطار.

٦- صفوة التفاسير: الشيخ محمد على الصابونى.

٧- حياة محمد: د. محمد حسين هيكل.

٨- الرحيق المختوم: صفى الرحمن المباركفورى (قراءة أبو

٩- محمد رسول الله: محمد فهمى عبد الوهاب.

١٠- عظمة الرسول: أ. محمد عطية الإبراشى.

١١- تاريخ الإسلام: للإمام الذهبى.

١٢- السيرة النبوية للطبرى: د. أخمد عبد الرحيم السايح (الأزهر).

١٣- بردة المديح: الإمام البوصيرى.

١٤- الشعراوى إمام الدعاة: فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى.

١٥- تاريخ الدولة العربية: أ. د السيد عبد العزيز سالم.

١٦- من السيرة النبوية العطرة: أ. د أحمد شلبى (جـ ١٦).

١٧- أنبياء الله: أ. أحمد بهجت.

١٨- الجامع لأوصاف الرسول: تحقيق أ. أيمن صالح.

١٩- الشوقيات: أمير الشعراء أحمد شوقى.

٢٠- التواريخ الهجرية: اللواء محمد مختار باشا (تكملة د. محمد عمارة).

٢١- المولد النبوى: أ/ إبراهيم العطار.

* * *

الفهـرس

* * *